الصـــوت الصغير

" أنتم موجودون ليس لمجرد كسب القوت .

بل إنكم موجودون لتمكين العالم من العيش في مزيد من الرخاء ،

وبرؤية أوسع ، وروح أكثر تطلعا للأمل والإنجاز ، وأنتم هنا لإثراء العالم ،

ونسيانكم لرسالتكم يسوقكم إلى براثن الفقر ".

وودرو ويلسون – الرئيس الثامن عشر للولايات المتحدة الامريكية

وضعت أوراقي أمامي وامسكت بطرفي المنصة . وقد نبهتنا السيدة هولينجسورث : " تذكروا أن تنظروا الى الجمهور ". وعندما نظرت الى تلك الوجوه المتلاطمة تحتي ؛ التصق لساني بسقف فمي ، بعدها سمعت صوتاً غير مألوف يقرأ عنوان خطابي . فتركته يتحدث نيابة عني ، وبدأ الصوت بالعلو والهبوط بشقف وبالكلمات التي كتبتها .

عندما كنت بالصف الأول ، وبعد انتهاء اليوم الدراسي ، بعد أن يكون أصدقائي في المنزل ، ولمدة ثلاث مرات أسبوعيا – كنت أقف على اطراف اصابعي وحيدة في مقدمة الصف وأنا أكتب على السبورة . فيجب أن أقرأ من (*ديك وجين*) عندما تناديني الأم القديسة زيتا ، لقد كان ذلك جزائي بأن أكتب لمائة مرة بسبب رفضي القراءة أمام زملائي .

بالنسبة لأساتذتي كنت فتاة قصيرة القامة عنيدة وثرثارة والتي ترفض الامتثال لأوامرهم ، ولم يعلموا أني أتلعثم عندما أقرأ أمام الجمهور – أي جمهور . وأثناء صف الدراسة كنت أجلس وأنا أحسد كارول برنت التي كانت تقرأ (ديك وجين) بسلاسة . وأنا مستلقيه على الفراش دعوت ربي أن يجعلني أقرأ مثل ساندرا ليفبير التي تأخذ نفس عميق بين الفنية والأخرى .

وفي ذات مرة ، عندما كنت في الصف الأول ، وقبل أن ألاحظ مقدار التلعثم المصابة به ، حاولت أن أقرأ بصوتٍ عال للام القديسة زيتا ، قفز قلبي في صدري بقوة حيث استطعت فقط أن آخذ أنفاساً قصيرة ، واتصلت بكلماتي ، ونتج عن ذلك أن القول الذي تفوهت به صوت واحد طويل وقبيح يبدو كالفقاعة . كلمتا "ديك" و "سبوت" استقرتا في حلقي ولم يخرجا أبداً . فضحك كل طلاب الصف الأول ، وصفقوا بأيديهم وهم مبتهجين . وقامت الأم القديسة زيتا بنزع نظارتها وصرخت يا إلهي!

كنت على وشك أن أصاب بهستريا ، لقد اختلقت الضحك معهم . لكن دمي ارتفع ليضفي على خدي وابيضت أصابعي ، والتصقت يدي بالصفحة الحادية عشر من كتاب (ديك وجين) عندما قررت عدم إظهار لعثمتي ، على غِرار جودي كاسيدي التي أخفت وحمتها الأرجوانية تحت سترتها حتى خلال فصل الصيف .

استمرت هذه الخدعة خلال كل تلك الصفوف الدراسية الابتدائية ، لكن في الصف السادس عدم مشاركتي في القراءة الشفهية اغضب الأم القديسة جورج التي كانت نحيفة مثل عصا المكنسة ولا تستطيع تحمل الكثير من الضغط لذلك انزلتني الى الصف الأول لمدة شهرين . وفي تلك الظهيرة دُرفت الكثير من الدموع من قبل أصدقائي الأربعة والثلاثين وقادوني الى منتصف الحي في موكب مهيب لإفشال صفعي بملعقة أمي الخشبية . وخلال الشهرين التاليين كنت أطبق ساقي تحت مقاعد صغيرة حتى رجعت ثانية إلى صفي في الظهيرة لتعلم دروسي في الصف السادس على يد الأم القديسة جورج .

ظننت أنها نهاية آمنة مع وصولي إلى الجامعة ، حيث أن الأساتذة هنا هم الذين يستأثرون بالحديث. لكن لا أتوقع ذلك من تقاليد الجامعة ومن السيدة هولينجسورث . وفي الأسبوع الثاني ، وقفت وراء المنصة في فصل اللغة الإنجليزية المتقدم الخاص بنا ، وأعلنت عن المسابقة السنوية للخطابة العامة والتي تكون بناءً على درجات نصف الفصل الدراسي الأول . وعما قريب سيعرف كل الطلاب الخمسة وسبعون والذين لم اكن اعرفهم – أني اتلعثم . واذا أخفقت في الإنجليزية ؛ سأفقد منحتي الدراسية.

قضيت يوما في المنحدرات البحرية وانا في حالة من الحيرة ، ثم تذكرت سطراً من (هاملت) كنت أحفظه ، حيث قال : "... إن لم يكن الآن سيأتي لاحقاً ... " ، " المهم أن تكون مستعداً " . منحتني هذه الكلمات الثقة الى حدٍ ما . ثم بدأت بتحضير الثمان دقائق التي سأتحدث فيها وذلك بتزويق كل كلمة وتنميقها ، وكنت القي الخطاب في كثير من الأحيان ، حتى بدأ يراودني في أحلامي .

ثم وفي الحادي والعشرين من تشرين الأول / أكتوبر ، وعندما ندهت السيدة هولينجسورت اسمي ، نهضت من مقعدي وتوجهت نحو المنصة ورجلي ترجف ،و تعثرت فقط في اللحظة التي يجب ان اناقش فيها ، لكن تماسكت نفسي وخطابي قبل أن نسقط على الأرض . ثم رجعت الى مقعدي وانا أعاني وخزة في قلبي . ثم قامت فتاة بضربي من الخلف تخبرني أني قد ربحت ، حتى أني لم أسمع السيدة هولينجسورت عندما أعلنت درجتي التي كانت ثمانية وتسعون بالمائة .

حفضت رأسي بين زراعي وبدأت أتنهد عندما تجمع زملائي حول مقعدي ، فسألني احدهم : أتبكين ؟ ، قلت : لأن هناك رمش في عيني . وأخيرا وعندما جلست ، كنت ارجف ، لكن ابتسمت لكل الأطفال حولي ، وللمرة الاولي في حياتي كنت واحدة منهم .

لم أعرف أنه في غضون بضع سنوات أنني سأخطو أمام جمهور خمسة أيام في الأسبوع كمعلمة . وفي عامي الأول في التدريس ، عندما اشرك مدير المدرسة طلابنا في المسابقة المحلية للخطابة العامة ، سرعان ما لاحظت أن جونثان الذي معي في صف الإنجليزية العاشر – نظر بعيداً ويتراخى كثيراً في مقعده عندما طلبتُ منهم القراءة ، وظل مطرقا رأسه ويلعب بتوتر بيده ؛ وذلك عندما بحثتُ في الفصل عن من يجاوب . فطلبت منه أن يقابلني في نهاية اليوم .

سألني : ماذا فعلت يا آنسة ؟ وقد جاءني يمشي ببطء ورفع راسه فقط ليسأل . فأجبته : لا شيء ، لكن لدي عرض لك . تذمر قائلا : لماذا أشارك في مسابقة الخطابة العامة وانا بالكاد استطيع القراءة في الصف ؟ ثم نقل وزنه من قدم الى الأخرى . ثم عرضت عليه أن ادربه كل يوم بعد المدرسة ، لكنه احتج وقال : " لا يمكنني البقاء بعد المدرسة لأنه يجب أن أكون في المنزل لاعتني بأخي ." وفجأة اعتدل في وقفته وشعر بالراحة لأنه وجد طريقة جيدة للهرب ، فواجهته لا مشكلة : " سوف نتدرب في منزلك ." فخفض رأسه واختفى تقريبا تحت سترتة .

لقد سار بخطى ثابته طيلة الشهرين ونصف الشهر التالي ، تعرق مع كل كلمة ، ويصفع جبهته عندما يتلعثم ، وفي بعض الأحيان يجلس امامي ويضع رأسه بين يديه ، لكنه لم يستسلم ابدا . وشيئاً فشيئاً بدأت كلماته تظهر وبطريقة سليمة .

وفي مطلع كانون الأول / ديسمبر وفي قاعة مكتظة ، غادر جونثان جانبي وصعد على المنصة وهو يرتدي بدلة استعارها من والده التي لم تناسب مقاسه بتاتاً . فلم يتعثر كما فعلت . لقد رأيت جونثان يستمد قوته مع كل كلمة . وشعرت بالدموع تسيل على خدي عندما أحنى رأسه لنيل المدالية الفضية .

تزوجت في ذلك الصيف وتركت هيئة المدرسة وأنا الآن في مهمة لمساعدة الطلاب الشباب ، واستمريت في تعليم الخطابة العامة بعد المدرسة .

وبعد مرور ثلاثة عشر عاماً ، وبينما أنا مستلقية على فراش المستشفى بسبب إصابة في الظهر ، فجأة شعرت بالسعادة الغامرة عندما اقتحم المكان عدد كبير من الخريجين ، وبدأوا يغنوا لي أغاني المدرسة ، ثم ظهر طبيب متمرن على الباب واطلق جوقة صاخبة وصاح من على الباب :" السيدة كيندلين .

فعقب طلابي عليه بل هي السيدة شيهان . لم استطع رؤية الطبيب المتمرن وسط هذه المتاهه من الرؤوس ، لكن شيئاً ما في صوته وطريقة كلامه جعلني اميز صوته ، لقد كانت ذكريات لا تنسى .

ثم صاح بسبب الضجيج ، حسنا يا شباب ، انتهت ساعات الزيارة . ومع آخر القفزات والتلويحات واكتافهم تتدلى محمولة بحقائبهم ، اتجه ضيوفي هذا المساء نحو الباب ، وبدأت تتلاشى أصواتهم وخطواتهم وهم يتوجهون الى الممر.

اتجه الطبيب المتدرب نحو فراشي وهمس لي : " هل تتذكريني يا آنسة كيندلين ؟ " ولاحظت عيناه اليقظتان تبتسم في وجهي ، وفي حالة من الثقة بالنفس وهو يرتدي ملابس المستشفى البيضاء . فتذكرت للحظة الطالب ابن السبعة عشر عاماً الذي يجوب المكان بينما ارغم هذا الطفل العنيد على قول كلماته ، الفزاعة التي تصعد على المنصة وهو يرتدي بذلة والده ، والابتسامة الشيطانية التي ظهرت عندما تظاهر بعَضْ الميدالية الفضية .

همس لي وهو يسير بجاني :" لا تبكي يا آنسة " ثم انحنى وقبلني على خدي .

" كيف لي أن أنساك يا (جونثان) "

~ شيلا كيندلين – شيهان .

تكريمُ أحلامي

إذا كنت موهوباً في الموسيقى ، فهي موهبة الاهية .

وإذا كان هناك شيء يلامس أوتار قلبك ،

فهي الطريقة التي يوحي الله اليك بها بأنها منحة لتُنميها .

عندما نظرتُ لنفسي في المرآة ، الصورة التي رأيتها كانت لامرأة منهكة بالعقد الثالث من عمرها . كنتُ صغيرة جداً لأبدو هكذا . لفترة ، يبدو ان الحياة تنجمُ أزمةً تلو والأخرى . وكزوجة ، وأم لبنت في الثالثة من عمرها ، وصاحبة وظيفة بدوام كامل ؛ أصبحتُ مشغولة جداً بالاعتناء بالآخرين ؛ وفقدتُ الإحساس بأحلامي .

مضى على زواجي أنا و(روبن) ثماني سنوات تقرباً عندما فقدنا طفلنا الثاني – الذي كان ولد – كنتُ حبلى به لما يقارب خمسة أشهر ونص الشهر عندما اكتشف الأطباء مشكلة خطيرة . لقد أُصُبنا بالصدمة عندما علمنا أنه لديه عيب في القلب ، بالإضافة الى متلازمة داون . كنا محطمان تماماً عندما أخبرنا الطبيب أن حظوظه في البقاء على قيد الحياة مستحيلة .

لم نكن نعلم أن تجربة فقدان ابن ستجعلنا حياتنا تنهار . ومثل معظم الآباء كانت تحدونا آمال عريضة في مولودنا الجديد . والآن يقال لنا انه سيفارقنا . كافحنا أنا وروبن كلنا منا بطريقته الخاصة لمواجهة الحزن . وعندما ابكي بشدة يتمالك روبن نفسه من البكاء . والحمد لله وبسبب قدرتنا في التحدث مع بعضنا البعض حيال فقدان ابننا الذي لم يولد ؛ تمكنا من أن نبقي زواجنا متماسكاً . لقد احببتُ عملي ؛ فهو عمل يحقق تطلعاتي ، وشعرتُ بأنني استطعتُ أن اجتاز هذا الأمر .

وبعد مضي ستة أشهر – والى اليوم تقريباً ، قامت الشركة التي كنتُ أعمل بها بتقليل أعداد الموظفين ؛ وتم إلغاء وظيفتي ؛ ومن ثم تم تسريحي . كنتُ اعمل معهم لعدة سنوات ، ولقد احببتُ هذه الشركة . وبطبيعة الحال كنتُ مكسورة الخاطر ؛ ففي الوقت الذي كنتُ لا أزال حزينة على فقدان ابني ؛ الآن فقدان وظيفتي ؛ بالإضافة للتعامل مع الضغط النفسي الذي تفرضه البطالة . واصبحتُ منهكة وكئيبة ، وشعرت بأنني قد انهار نتيجة للإجهاد العصبي والنفسي .

لحسن الحظ ، وفي العاجل القريب استطعت أن أجد وظيفة أخرى ، ومع ذلك ، وعلى الرغم من أنني كنتُ تحصلتُ على مصدر دخل ثابت ، لكن الروتين الممل من التوجه للعمل ، وإعداد وجبات الطعام ، وطي الغسيل ، وبشكل عام الاعتناء بالجميع ما عدا نفسي ؛ بدأت تبدد من شعوري بقيمة نفسي وشعوري بالرفاهية .

في الماضي عندما كنتُ مراهقة ، كنتُ املك تطلعات بأن اصبح مغنية . وكنتٌ احب كثيراً ان اغني . لكن عندما علمت أن الأخرين يعتبروني جيدة ، ولكن ليس بما فيه الكفاية ؛ سمحت للحقيقة المرة لتلك الرسالة أن تتكشف . وللأسف ، تخليت عن حلمي . لكن عندما طلب مني أصدقائي الذين كانوا استمتعوا بغاني – طلبوا من أن اغني في الحفلات ؛ بدأتُ اتحججُ بأعذار واهية . وقلتُ لنفسي ما الفائدة من ذلك . لم تكن لتوصلني لشيء . ولسبب ما لم أعد أشعر بأن لدي الحق في أن أغني ؛ وتوقفتُ تماماً .

بعد عدة سنوات ، ومع بلوغي سن الرشد ، وضعتُ نُصب عيني علي مستقبلي المثمر في الكتابة. لقد أحببتها ، وعلمت ان لدي الموهبة لفعل ذلك ؛ لذا عزمتُ على الحصول على درجة جامعية . ولكن بعد ان لم تمكنني هذه الدرجة الجامعية المتوسطة في الكتابة من الحصول على وظيفة في هذا المجال ؛ تخليتُ عن هذا الحلم ايضاً . لكن الحاجة لكسب لقمة العيش جعلني ابحث عن هدف يمكن تحقيقه بسهول وهو أن اصبح سكرتيرة .

اصبح نمط الحياة الذي أعيشه يستنزف قوة حياتي ، ثم انتابني شعور قوي للقيام ببعض التغييرات . لطالما عرفت أن الاحلام تظهر ما يحدونا من أمل . وبدأت تراوضني أحلام يكون فيها ميكرون الأغاني امامي ، ودائماً ما توجد مشكلة خلل فني . ويحدث التماس لشبكة الكهرباء ؛ يجعلني صامتة ؛ وبلا صوت.

ادركتُ ان حلمي كان يلهمني بأن قواي الخاصة قد توقفت . والطريقة لاستعادتها مجدداً يتمثل في إيجاد منبراً لصوتي – فقد حان الوقت لبدأ الغناء مرة أخرى . وعقدتُ العزم على أن اثبتُ لنفسي أن صوتي يمكن أن يُسمع . وعرفتُ من قلبي انها تلك هي الحلقة المفقودة والتي عادت لمكانها ، والتي ستعيد الفرحة والحيوية مرة أخرى في حياتي ، الشيء الذي جعلني أشعر بالحماس .

شاركتُ حلمي مع روبن ، وكالعادة كان عونا كبيراً لي ؛ فهو يتفهم ميولي الإبداعية ويحترمها ، ويحثني على المضي قدما . ثم ذهبت الى متجر موسيقى محلى ووضعت إعلاناً يقول " مغنية متاحة " ، ثم عدت الى المنزل وحبست انفاسي .

بدأت الردود تصل خلال الأسبوع الأول ، والاتصال الثاني تلقيته من فرقة روك شعبية منشأة حديثاً والتي تبحث عن مغني لإعطائها زخمنا جديداً . لقد كنت متحمسة جداً عندما تبين لي بأنني الشخص الذي كانوا يبحثون عنه . وبعد اول جلسة غنائية مع الفرقة بدأت أشعر بعودة الحماس الى حياتي .

كنت اتدرب كل ليلة جمعة دون إخفاق . ووجدت أنه كلما غنيت أكثر ؛ كلما بدأت نفسي المجروحة تستعيد عافيتها . لقد أحببت ذلك كثيراً ، ووجدت نفسي امضي قدماً ، وبتفكير وإحساس متجدد بالشعور بالذات .

غنيت مع تلك الفرقة لمدة عاميين رائعين . وبعد ذلك عندما انجبت ابنتي الثانية ؛ ونظرا للمطالب المفروضة على وقتي تخليتُ عن الأمر مرة أخرى . ولم تمضي فترة طولية حتى بدأ ذلك الشعور الروحي العميق يعود مرة أخرى . كان روبن يعمل بنظام العمل التناوبي ؛ ولذا من الصعب تنظيم أمسية في الخارج . وشعرت بالذنب حيال رغبتي في بعض الوقت بعيدا عن أطفالي ، لذا أبقيت احتياجاتي جانباً.

وقريباً ، تماماً كما من قبل ، بدأت أحلامي تداعب متنفسي الإبداعي . وهذه المرة كانت الكتابة . ان احلامي كانت ترغمني على أن ادرك بأنه بغض النظر عما قد تكون عليه التزاماتي الشخصية ، فأنه يجب أن تحترم رغبتي في التعبير عن شخصيتي الإبداعية ؛ وإلا كنت سأدفع الثمن .

وجدت وسيلة لتلبية تلك الرغبات الإبداعية مرة أخرى ، وذلك عندما وجدت مجلة الكترونية تبحث عن مقالات . ومُنحتُ عمودي الخاص . لقد كان شعوراً رائعاً رؤية مقالاتي تنشر كل أسبوع .

أقضي هذه الأيام وقتي في الذهاب من والى العمل ، والغناء بصوتٍ عالي ، وصرخات مليئة بالفرح . هددني زوجي مازحاً بأن يظلل نوافذ السيارة لكي لا يعتقد السائقون الآخرون بأني متوحشة . ولإزاحة بعض المخاوف عن كاهله ؛ وضعت مؤخراً إعلاناً آخر في نفس متجر الموسيقى المحلى على أمل الغناء في فرقة موسيقية مرة أخرى .

لقد سمعت الكثير من النساء في عمري يتذمروا ؛ لأنه بسبب مطالب الأسرة تخلو عن طموحاتهم الإبداعية . تساءلوا صراحة حول ماذا كانوا سيصيرون إذا اختاروا طريقاً آخر .

وكما حدث ، انا لست من أولئك النساء . تعلمت انه ليس علي ان أؤجل احلامي بينما يكبر أطفالي ، في الحقيقة قد ينجح الأمر كثيراً إن لم ينجح معي . وعوضاً عن ذلك فأن الطاقة التي استمدها من تحقيق الذات تخولني أن ألهم أطفالي بشكل مضاعف . وأُدير لحظاتي الثمينة هنا وهناك لتدوين أفكاري والإبقاء على روحي الإبداعية . أن أحلامي هي التي تبقى على الجزء المقدس مني على قيد الحياة . لم أدرك قط حتى وقت قريب أنه كيف يمكن من خلال العيش وتحقيق طموحاتي الإبداعية أن اقدم

لأطفال أفضل شيء يمكن تقديمه . وبتعليمهم كيف يحققوا أحلامهم ويرعوا أنفسهم عاطفياً وروحانياً ، سيعود ذلك بالنفع عليهم لبقية حياتهم .

كنف اللّه

فتحتُ بئرٌ حيث كنت انظر

تندفع الرياح من خلالها

تتخلص من ما بقى من آثار

وها انا ذا مؤمن بقضاء الله

امد يد العون للأخرين

لأجل حياتي

فوضتُ امري لله

ليدبر حياتي

اطلب الاتزان في حياتي

في لوحة ذات لحظات جميلة

اقضيها في نعمة من الله

دارلين مونتغمري

الباب الثاني

فقدان الأحباء

سأفتح قلبي وأنا على ثقة بأنه

وبطرقة او بأخرى

محبوبي سيظل موجوداً في حياتي

ـ مارتا ويتمور هكمان .

الحب لا يموت أبدا

" من خلال الموت نولد من جديد في حياة أبدية ."

- مجهول

في صباح يوم سبت خلال شهر آب / أغسطس ، وانا في طريقي الى مكتب البريد اخذت منعطف خاطئ ، فبدلاً من أن انعطف لليسار انعطفتُ لليمين ، فتعين علي أن اعود مرة أخرى خلال سلسلة من المنعطفات .

وعندما أخّذتُ طريق العودة ، وخلال طرق مختلفة شعرت بالصمت في كل مكان . وبينما استدرتُ في احدى المنعطفات إذا برجلٍ مستلقي على الطريق ، أول ما خطر ببالي أنه عدّاء أصيب بنوبة قلبية . ثم أوقفت السيارة على جانب الطريق لأرى إذا كان بإمكاني المساعدة .

عندما نزلت من السيارة شعرت وكأني خطوتُ في حضرة الله . والمنطقة حول الرجل المستلقي كأنها مكان مقدس جداً . ثم رأيت جروحه الفظيعة فادركتُ أنه قد صدم بواسطة سيارة ولم يكن هناك متسع من الوقت .

نظرت اليه وقلت : " سأعود حالاً . قد تحلُ البركة ." ــ هذه المقولة الأخيرة هي بركات قديمة عند إكنكار .

ركضتُ الى أقرب منزل وأنا أصرخ " اتصلوا بالطواري ، اطلبوا المساعدة " ، ثم اتصلوا بالطواري ، وركضتُ عائدةً الى الرجل وسجدتُ بجانبه وانا أنشد (هوو) _ أسم آلهة قديم .

تنهدت ما أن بدأت بالإنشاد ؛ لأن قلبي كان مفطوراً بالشفقة عليه . لقد سمعت صوتي الداخلي يذكرني " فرانسيس لديكي مهمة لتقومي بيها . ركزي على ذلك . " لذا تمركزت، وانشاد (هوو) خرج واضحاً كرنين الجرس ، " هووا " .

توقف جسد الرجل عن التشنج على نحو مفاجئ . ثم التفت ونظر في عيني . أعرف أن الروح تتعرف على نور الاله وصوته عند إنشاد (هوو) . تفتح سمعي الداخلي ؛ وأصبح بإمكاني سماع الرجل

يتحدث . اهتمامه الوحيد كان عائلته . قال لي بشكل صامت : " زوجتي وعائلتي ، أرجوك دعهم يعلمون ."

قلت : " يا الله كيف لي أن أخبر عائلته ، فهذا الرجل مجهول الهوية . "

وفي اللحظة التالية أذا برجل يوقف سيارته ويركض باتجاهنا . سأل : " هل يمكنني المساعدة ؟ " . وجلس بالقرب مني وهو يلهث وقال : " يا إلهي أنه ستان . " .

سألته : " هل تعرف هذا الرجل ؟ " .

أومأ بنعم.

" إنه يريد أن تعرف عائلته بالأمر ؛ أرجوك أذهب وأحضرهم "

سارع الرجل بعيدا . وارتاح الرجل المصاب بمجرد أن عرف أنه تم الاهتمام بالأمر . اما اهتمامه الثاني فقد عبّر لي هامساً : " أريد بركاتٍ من الله ." .

قلت له : " لقد استحققت الحق في أن تمشي حضرة الله . وتستحق الحب والرأفة والاحسان في هذه الحياة . وستعيش الى الأبد في ملكوت الله . "

وسرعان ما حضر المسعفون ووضعوا الرجل في سيارة الإسعاف . وانا ما زلتُ ساجدة بجانب الطريق ؛ وانا انشد بصمت " هوو " . وبعد دقائق قليلة ، سقط قصن صغير من شجرة بجانب الطريق ، وحط بهدوء بجانبي ، وشعرتُ بأمواج من السلام والمحبة . وأدركت ان روحة قد أعربت عن هذه الحياة في عملية نسميها الموت.

تناسيتُ هذا المشهد في بعض الأوقات ، لكن لعدة أيام شعرت أني متصلة بهذه الروح . لقد كنت متأثرة حين ذهبت لحضور مراسم جنازته . لقد تبين لي كل شيء ظهر في تلك اللحظات الثمينة التي كانت في منتصف الطريق .

تحدث القسيس عن التغيرات التي مر بها ستان في الشهور الأخيرة من حياته . لقد تعلم الكثير عن الحب والخضوع ولما له من إختراق روحي عندما يقرأ من الكتاب المقدس .

القصة الدينية التي مسته كانت بخصوص ملاك جاء لرجل في منتصف الطريق وصارعه على الطريق فسأله الرجل : " من أنت ؟ "

رد الملاك : " لماذا تريدُ أن تعرف "

وقال الرجل الذي بالقصة : " أريد بركات من الله . "

تلك القصة ملأت قلبي بالحب . وبعد المراسم الدينية ، احسستُ برغبة في التحدث الى زوجة ستان ، لكن لا أريد غمرها بكل تفاصيل اللحظات الأخيرة من حياة زوجها . لذا طلبت المساعدة باطنياً من الروح السماوية .

في تلك اللحظة ثمة من نادى بإسمي . لقد كان زميل زوجي . قال لي : " فرانسيس ، لم أكن على دراية بأنك تعرفين ستان . "

قلت : " لقد التقيت به فقط في آخر لحظات حياته " ، " والنور حوله كان لامعاً كالشمس في الصباح . "

قال : " يجب عليك أن تخبري زوجته " ، " كلماتك هذه ستساعدها كثيراً "

ثم قدمني الى زوجة ستان وعرفني عليها . وأشار الى أنني كنت قد وجدت ستان وبقيت معه في الطريق ، وأن لدي تجربة كنتُ اريد أن أشاطرها معها حين يكون الوقت مناسب .

بعد عدت أيام اتصلت بي ودعتني للمجيئ لمنزلها . حيث كان يتواجد كل من شقيق ستان وبعض أقاربه . فقد كانت تريد مني أن اخبرهم بما حدث .

تلعثمت وقلت : " أتمنى أن أخبركم دون أن ابكي "

قالت : " لابأس ." ، " جميعنا كنا نبكي "

عندما انهيت مشاركة قصتي قالت الزوجة : " أنا ممتنة جداً لأنك كنتي موجودة من أجل زوجي . لقد اخبرني أنه بخير وأنه في الجنة . وبعد العزاء ذهبت للجلوس وحدي في الفناء الخلفي لبيتي ، وإذا بفراشة تحوم حولي ، ولم تغادرني أبداً . في كنيستي تعتبر الفراشة رمز ديني ليوم القيامة ".

قلت : " في كنيستي " ، " نؤمن بأن الروح خالدة وتعيشُ الى الأبد . " ، شعرتُ انها فهمت تماماً .

تجربتي مع وفاة ستان كانت واحدة من التجارب ذات المعنى العميق ، وتجربة لمعنى الحب . ولكن لم أكن أعلم حينها أنها كانت تجربة تحضيرية لما هو قادم .

فبعض أسابيع نُقل زوجي الى المستشفى . كان بلاكول ملهمه في عمله كعازف جاز (طبّال) ، - ملحّن ومعلّم – لقد كافح مع الحياة ؛ فأنه على مدى السنوات العشرين الماضية عاش مصاباً بفشل كلوي ، حيث يعتبره زملائه أنه كان معجزتاً حية .

لم أكن أدرك أن آخر أيام حياته ستكون في المستشفى ، لكن عرفت أني بحاجة في أن أكون بالقرب منه . فحجزت لي سرير في غرفته . عشنا كثيراً من اللحظات المؤثرة . وفي ليلة وجدته يتنهد بالبكاء .

قال لى : " لا أريد أن أفارقك " ، " تعلمين مقدار حبي لك ، اليس كذلك ؟ " ، ولم يمضي وقت طويل بعد ذلك حتى نقل الى العناية المكثفة .

ليس من السهل التخلي عن أحد الأحبة ، لكن عملية التحول التي وقعت في أوائل آب / أغسطس خففت عني . كل محاولات الأطباء كانت لإنقاذ زوجي ، لكنهم كانوا يعلمون انه ليس بمقدورهم إنقاذه . كنت أرى الكلمات المحبوسة في عينه . لذا ذهبت الى جناح الكنيسة بالمستشفى وسألت (مهانتا) ، ارجوك أخبريني وبما لا يدع مجالا للشك ، ماذا يريد زوجي ؟ .

امتلأ تصوري الداخلي بضوء أزرق نابض ، ثم أنبثق ضوء ذهبي من داخل البقعة الزرقاء ، ووقف زوجي بداخل هذه الهالة الضوئية سعيداً ومليء بالمحبة .

سألته : " أخبرني ماذا تريد ؟ "

قال : " أنا مستعد للرحيل " ، " أحبك "

عدت للأطباء وقلت لهم : " ثمة شيء لم يستطع أحداً منكم أن يخبرني به " ، " وهو أن زوجي يتحضر . " . لقد بكينا ، ثم أدركنا أنه حان الوقت لندعه يرحل . لقد شعرت أنه يتحرر .

وهكذا تهيأنا لرحيله ، وتواجد كل من أصدقائه وعائلته ، واستمعنا لموسيقى من آخر تسجيل له في الغرفة . و كان محاطاً من قبل أحبائه . ومع آخر لحظاته قمنا جميعاً بالإنشاد " هوو " . ثم رأيتُ مهانتا تأخذه الي الجنة – واحدة من عوالم الله . كان قلبي مملوء بالفرح والحزن ، وكلاهما جزء من الروح الإلهية ، ومن الحب الإلهي .

بعد مرور عدة أيام ، وبينما أنا جالسة على حافة الفراش ، رحل زوجي ، وفجأة ملأ حضوره الغرفة بأكملها ، وملأ قلبي بالنور والحب .

لقد غنى أغنية لي :

لا تبكي من أجلي

وإن رحلتُ بعيداً

فلن افارق قلبك

سأكلمك بالصوت السماوي

وستجري في روحي الى الابد

فلا تبكي من اجلي

وإن تحدوك دموعك

فهي السبيل لشفاء قلبك

انا لست بعيدا

وانتي دوما قريبة

بين الدموع والابتسامة

فلا تبكي من اجلي

تعلمين ان قلبي ما زال ينبض

في انفاس كل ما هو حي

سأغني اغنية الحياة

بإيقاع طبل مقدس

نتغلب على الزمن في لعبته

فلا تبكي من اجلي

فأنا حر .

بعد عدة أسابيع أرسلت لي لورا (زوجت ستان) بطاقة دعوة . كتبت فيها أنها قرأت عن وفاة زوجي وعن شجاعته . وقالت : " إنه كان محظوظاً جداً في أن تكوني الى جانبه . "

أنا ممتنه للهبات ، فهذه التجارب أتت بي ، واكتشفتُ أن الحب ، أي حب ، هو حب الله . وكل عمل بنية المساعدة وبقلب صاف ؛ يقربنا أكثر وأكثر من معرفة الحب مدي الحياة .

أحتفل بالحياة ! تجرأ على أن تحب

الحب يدوم .
الحب لا يتغير .
الحب يعيش الى الأبد .

فرانسيس بلاكويل

مهانتا هي اسم لمرشد روحي لأولئك الذين يتبعون حركة اكنكار .

هدية والدتي الأخيرة

التئام الجراح هو بالأساس التحرر من الخوف .

- درساً في المعجزات

أُمي كانت تُدعى ليليان ، وكانت أسوأ مفكرة سلبية في العالم . لقد عاشت حياة صعبة للغاية . نشأت في بلدة حدودية صغيرة بين بولندا وليتوانيا ، وعندما أتى النازيون قتلوا العائلة بأكملها ، حيث ماتوا جميعاً في المحرقة ما عدا هي ووالدها .

أضعفت هذه التجربة إيمانها . وكثيراً ما تقول : " لو كان هناك رباً رحيم ؛ إذن لما حدثت المحارق ، ولما مات الأطفال الصغار ، ولا تحدث الأشياء السيئة للأشخاص الطيبين . " ، انها من النوع الذي يستسلم . الطريقة التي تعاملت بها مع الألم كانت يجب أن تكون " لن أحلل حياتي " .

هناك شيئين علمتني لهما عندما كنتُ صغيرة ، الأولى وأبلغت به بوضوح وهو " يجب الا تدرسي علم النفس أبدا . وإذا شعرتي بألمك ؛ ستصبحين جزء منه . " هكذا كانت تتعامل مع الأمور ، خطوة بعد الأخرى . الشيء الآخر الذي قالته : " أفعل أي شيء ، لكن لا تدرس أي دراسة دينية إلا اليهودية . " كانت لا تعتقد بأن يوجد أمرا مثير للاهتمام في دراسة اليهودية بكل الأحوال ، لكن على الأقل تشعرك بالأمان .

قالت : " أن (كارل ماركس) كان يقول أن الدين هو أفيون الشعب . وهي نوع من العبارات التي تغزي نفسك لتعطي معني للوجود الذي بطبيعته لا معنى له . " ، قد تظنوا أن هذا النوع من التفكير يمكن أن يعجّل بموتها . لكن على العكس فقد عاشت حتى 82 سنة ، وذلك بعد عمر كامل من التدخين والشراب . هذه المرأة كان لديها جينات حديدية .

أنا وليليان لم نكن متوافقين . خلال السنة الأخيرة من حياتها حاولنا لعدة أشهر أن نتحدث معاً بموضوعية . لقد نظرت في كثير من الأحيان الى علاقتي مع أمي وأبي كجزء من معافاتي . لكن ولعدة سنوات كنت أحمل قدراً كبيراً من الغضب تجاه أمي . حتي أن اسمي الاول لم يكن جوان ، وانما كان (ليست ليليان) ، وأياً من كانت هي ، لقد اردت فقط أن أكون مختلفة . هذا فيما يتعلق بأكثر أشكال

الارتباط خطورة من عدم التسامح الذي يشغل بالي . لقد جعلتني بعيداً من ان اغوص في نفسي ، وبعيداً من ما تعنيه لي حياتي .

استغرق التعافي من ذلك وقتاً طويلاً . لكن وفاة والدتي في حد ذاته قدم لي ايضا تعافي ملحوظاً .

يوم وفاتها كانت قد أصيبت بنزيف داخلي حاد ، حينها كانت بالمستشفى ، وفي التاسعة من صباح ذلك اليوم أخذوها الى الطب النووي لإجراء بعض الفحوصات ، وحتى الرابعة مساءاً لم تكن عادت الى غرفتها ، والتي كانت في تلك الاثناء مليئة بأصدقائها وأقاربها الذين جاءوا لوداعها . كانوا قلقين عندما قالوا لي : " جوان ، انها ستموت على النقالة في أي مكان بالخارج أن لم تذهبي لإحضارها . " ومن ثم قمت بارتداء معطفي الأبيض وتوجهت بثبات نحو الطب النووي . وعندما وجدتها كانت مستلقية لوحدها على النقالة . لقد قضت كل اليوم في هذا المكان ، شيئا ما قد حدث ، شيء طارئ ، ثمة حادث وقع ، لذا جعلوها تنتظر .

كنت منزعجة جداً . ففي هذه الظروف يجب عليكم أن تحافظوا على حقوقكم ؛ لا تدعوهم يأخذوا أحبابك . ومن غير تردد نظرت للطبيب وقلت له : " هذا لن يفلح ، يجب أن تستعيدها " فرد الطبيب : " نحن بحاجة الى تشخيص . "

تمزح والدتي باستمرار وتقول : " ألهذا السبب انا كنت مستلقية هنا طوال اليوم ؟ لماذا لم تسألوني ؟ قال الطبيب المندهش : " ماذا ؟ " ، ردت والدتي : " إليك تشخيصك ، انا أحتضر " . وهكذا اخرجتها من هناك لأرجعها الى غرفتها . توجب عليهم أن يضعوها في مصعد وهو كبير بما يكفي النقالة وشخص واحد آخر وهو الممرض . ثم قال لي الممرض : " ينبغي عليكِ أن تقابليها في غرفتها . "

رفضت وقلت له : " لن أذهب " ، ثم قمت بدفعه خارج المصعد . وهذا مخالف لقواعد المستشفى ، وغير مسموح لك بأن تقوم بنقل أفراد عائلتك . ولا سمح الله يمكن أن يحدث شيئاً ما.

صرنا وحدنا في المصعد ، ثم نظرت الي مدركة انها فرصتنا الأخيرة لقول أي شيء . قالت لي : " جوان ، يجب أن أنهي هذا معك ، وأعرف أني قد اقترفت أخطاء كثيرة ، أعرف ذلك وانا اعتذر ، هل يمكن أن تسامحيني ؟ "

سماع هذه الكلمات كان رائعاً ، ولكن الشيء الأكثر روعة أنه كانت الفرصة سانحة أمامي لأقر بكل الأخطاء التي اقترفتها ، ليس عن طريق وضع قائمة ، لكن فقط عن طريق الإحساس بالمشاعر . لان والدتي لم تكن تحب تسلسل الأحداث العاطفية ، فهذا لم يكن اسلوبها .

لكن كان عندي قائمة من الأحداث . انا آسفة فلم يسبق لنا أن كنا أصدقاء ، وانا آسفة فلم أستطع

أن أكون بجانبها كلما كنت أود ذلك ، وأنا آسفة لأني عقدت معها محكمة ، ولكن الأهم من ذلك كله أني آسفة على ابقائها خارج قلبي ، لكن أن أتمكن فقط من النظر الى عينيها وأقول لها : " هل يمكن ان تسامحيني على الأخطاء التي اقترفتها ؟ " وان تسنح لي الفرصة وتقول لي " نعم " فهذا قدم لي تعافي العمر . لقد كانت لحظات رائعة .

عندما أعدتها الى الغرفة ، كان كل شخص قد ذهب لتناول كوبا من القهوة ، ومع الوقت القليل المتبقي نظرت اليها وقلت : " ماذا لو استطعت من استبدال صفات الروح ؟ " قالت : " الآن ، لكن أنتي لستي من نوع النساء التي يمكن للشخص من استبدال الروح معهم ، لكن انها لحظة صراحة رائعة ، نعم بالتأكيد اود ذلك . "

وهكذا بدأت بالكلام : " الشي الذي لطالما اعجبني فيكِ كان شجاعتك وثباتك الهائل الذي كان لديك بغض النظر عن الظروف . " ، ولكن انا أنهار حينما تسوء الأمور .

قالت لي : " سأقول لكِ ما يلي . " ، ثم قالت : " ما أريده منك هو الشفقة . " ، حقيقة انها يمكن أن تلحظ ذلك علي ؛ فانه يمكن ان أكون رحيمة مع أي شخص الا هي ؛ كان ذلك أكثر شيء مثير للدهشة .

وبعد بضع ساعات وصلت ابني جوستين البالغ من العمر عشرون سنة . لقد كان مقرب جداً من جديه . حيث كان يقضي كثيرا من الوقت مع والدتي عبر مر السنين ، وفي صغرة كانت تقوم برعايته في أغلب الأحيان .

معظم تلك الليلة كان مستلقي على الفراش ممسكاً بيدها . قلنا له صلي من أجلها وغنّي كل شيء يمكن أن يخطر ببالك . وأخيراً ، وحوالي الثالثة صباحاً نامت . اما انا وجوستين كنا جالسين على طرفي نقيض من السرير وانا أتأمل ، وحينها راودتني رؤيا .

كل ما حظيتُ به كانت رؤية واحدة . ولم تكن بالتأكيد حلماً . لقد كانت مختلفة تماماً عن الحلم . وكل ما أستطيع قوله أنه اكثر واقعية بكثير من مستوى الحقيقة . يقول التيبتيين القدماء اننا الآن في حالة حلم ، وان هذه الحياة هي فحوى الأحلام . وعندما نفارق هذه الحياة حينها يكون ذلك هو الوقت الذي نستيقظ فيه حقيقة .

ووفقاً لهذه الرؤية كنت امرأة حبلى تنجب طفلاً ، وادراكي كان في الجانبين على حد سواء ، وفي آن واحد كنتُ الأم الحبلى والطفل .

ثم كنت طفلة تولد وتشهد ليلة روحية سوداء ومرعبة . كنتُ أحتضر . حيث كنت أحتضر في عالم الارحام ، ثم اولد الى عالم جديد كلياً . أثناء الولادة كنت قد مررت بقناة الولادة ، ثم الى خارج الظلام الى الضوء الأكثر سطوعاً . وفي لحظة الميلاد تلك تعرفت فجأة على كل ما يتعلق بعلاقتي مع أمي ، تعرفت عليها كل المعرفة في هذا المكان .

وعندما فتحت عينيّ كانت الغرفة مليئة بالضوء ، ولم تكن هناك حواجز بين الأشياء ، فكل شيء أصبح طاقة وضوء ، وكل شيء يخترق بعضه البعض . وعندما نظرت الى الجانب الآخر من الفراش كان جوستين يبكي والدموع تنهمر من وجهه . كان وجهه مشرقاً كانه رأى وجه إلهي .

همس لي قائلا : " لقد امتلأت الغرفة بالضوء " , " هل يمكنك ان ترى ذلك "

اجبته " نعم " .

قال : " انها هدية جدتي الأخيرة " ، " انها ممسكة الباب على نحو مفتوح ، حتى نحظى بلمحة ."

نظر الى بكل حنان وقال : " لابد ان تشعري بالامتنان لها " ، ادركت حينها انه كان لديه رؤية ايضاً ، وكنت ممتنة لذلك . حيث قال : " أتعلمين ، انها كانت روحاً عظيمة ، ولديها قدر هائل من الحكمة. لقد ولدتُ وحصلت على دور اصغر بكثير من الحكمة التي لديها ، وهذا لإعطائك شيئاً لتقاومي من أجله ، ولأن تستطيعي أن تكوني ما أنتي عليه الآن . الا توجد كلمة لتصف ذلك ؟ "

الكلمة التي كانت تبحث عنها هي (بوديساتفا) ، وهي من التقاليد البوذية . واعتقد اننا (بوديساتفا) بطريقة ما . فنحن لا نأتي لأنفسنا فقط ، بل نحن نأتي لأننا ننمو كمجموعة ، وننمو خلال ما نشاركه مع الآخرين وخلال الصعوبات ، وربما اكثر من خلال الأوقات التي تسير فيها الأمور على ما يرام . كما اننا جزء من أكبر الأسرار الدينية المقدسة .

والآن هذا هو اهم شيء ، ويجب أن تأخذيه في عين الاعتبار: انتي لستِ وحدك ابداً . اذا امكنكِ أن تري فأنه توجد هناك الكثير من الكائنات المضيئة التي تقوم بدعمك اكثر من الذين هم من عائلتك . لذا انتي لست وحدك ابداً . وأن أي محاولة قمتي بيها لتصبحي هادئة بداخلك ، وأي صلاة أديتها لتتضح لك الأشياء ، كل ذلك من شأنه أن يحدث فرقاً في هذا الكون . وطالما أن كل واحد منا يتعافى ، فأننا لا نتعافى وحدنا. ولن نتعافى حتى نرتقى بكل من هم جزءاً منا .

د. جوان بوريسينكو .

رؤية سكاي مرة أخرى

ليس هناك موت ، ما يبدو لنا هو عملية انتقالية

وهذه الحياة مليئة بالأنفاس البشرية

وماهي الا ضواحي الحياة السماوية

والتي نسمي بوابتها الموت .

- هنري وادسورت لونجفيلو -

شعرت بخسارة كبيرة بعد وفاة ابنتي الجميلة سكاي بعمر ثمانية سنوات بسبب سرطان الدم في العام 1968 . في خلال الفترة القصيرة التي كانت فيها سكاي معي سافرنا معاً حول العالم ، وعشنا في استراليا ونيوزلندا ، وفي رحلتنا الأخيرة سافرنا على متن سفينة بحرية الى مصر ، حيث قضينا اوقاتاً رائعة .

انا وهي كلانا كنا نمتلك غريزة قوية جدا في القدرة على رؤية الكائنات التي تسير في الأرض ونحن في الطائرات ، وهكذا تشاركنا شيء معظم الفتيات وامهاتهم لا يتشاركونه . بالإضافة لذلك فقد كنا مقربين جداً .

عدنا الى إنجلترا قبل سنتين من المأساة ، وبعد فترة وجيزة تطورت لديها أعراض انفلونزا ، والتي تطورت لتصبح سرطان الدم . وبعد وفاة ابنتي العزيزة سكاي ، بدأ يراوضني حلم باستمرار عندما أنام ، حيث كنت اقف فيه أمام منزل رمادي كبير من طراز المنازل الجورجية القديمة ، ولكن عندما ادخل المنزل كنت دائما أواجه نفس الأزقة البيضاء التي لا نهاية لها . وهو مشهد يتكرر في كل حلم ، حيث أكون أبحث بيأس تام لكي أجد سكاي .

ومن حين لآخر أقابل ما يشبه ممرضة او طبيب ويسألون عن مكان سكاي . فأشير بطريقة او بأخرى الى الأسفل ، وسكاي تقودني بإلحاح بعيداً ، وهي بحاجة ماسة الي ولكي اعرف انها وحيدة في مرضها .

أستمر هذا الحلم الفظيع الذي يراودني لعدة شهور حتى أخذ منحنى مختلفاً في ليلة من الليالي . وفي هذه المرة دخلت المنزل كالعادة وتبعت عدة أروقة ، حيث وصلت أخيراً الى دور علوي . لم يسبق لي أن كنت به من قبل ، ولم أكن أعرف بأن هناك طابق علوي .

هناك وجدت نفسي فيما بدأ انه مسرح من الطراز القديم وانا جالسة في قاعة مشاهدة تطل على خشبة مسرح ضخمة . وفي ركن به ضوء خافت رأيت صف من الأطفال يغنون علي خشبة المسرح . ومن ثم رأيتها ، انها سكاي في آخر الصف ، ترتدي سترتها المفضلة ، ثم ألتقت أعيننا في لحظة من الإدراك . رباط الحب بيننا كان بمثابة مغنطيس يرفعنا الى اعلى ويجذبنا الى بعض . وانفجرنا بالسعادة والحنان ونحن نحلق في الهواء .

وعندما استيقظت انتابي شعورٌ جميل مصحوب بالدفء والفرح . واخيراً وجدت ابيتي العزيزة !

وتبع ذلك أحلام كثيرة حيث تراودني سكاي في المحلات ، اوفي الشوارع ، اوفي الحافلات . وفي كل مرة تمسك سكاي يدي لتطمئنني بأنها سعيدة وعلى ما يرام .

في العام 1989 توفيت جدتي ، حيث ربطتنا علاقة وطيدة جداً . وعشت معها على نحو متقطع أثناء سنوات الحرب . لقد كانت بمثابة أم ثانية لي . وعندما عدت الى إنجلترا في العام 1988 أخبرتني انها تريد أن تموت . لقد كانت بعمر 93 سنة ، وكثير من أصدقائها بالإضافة لمعظم العائلة كانوا قد ماتوا . وأصبح جسمها ضعيفاً وتتعب بسهولة .

لم تخاف من أن تموت ؛ فقد كانت أمرأه روحانية ، وسبق وأن تناقشتُ معها بخصوص هذا الموضوع ، وقلت لها : " جدتي رجاء اذا متي حاولي أن تتواصلي ان استطعتِ . وأخبريني كيف تسير الأمور معك."

وبعد بضعة أسابيع ماتت جدتي ثم راودتني في رؤية . لقد كانت أمرأه في الخامسة والأربعين ، ولها شعر مجعد متمايل وتكتسي باللون الأرجواني ، وسلسلة طويلة من الخرز الأرجوانية ، اما الجزء الأكثر غرابة هو انه كانت تركب نورتن - دراجة نارية كبيرة تشبه الدراجات البريطانية القديمة . لقد كانت تضك وتقول لي انه شيء رائع . الحلم بدا واقعياً واستيقظت منه وانا أشعر بالبهجة والسعادة .

وبعد بضع ليالي راودني نفس الحلم ، حيث ان جدتي تقود دراجة نارية كبيرة تشبه نورتن ، وتكتسي اللون الأرجواني ، وتبدو أكثر شباباً ، لقد قالت لي : " انظري من وجدت ."

انها سكاي تجلس جاثمة خلف جدتي ، ولها شعر اشقر يرفرف كما لو أنه وسط رياح . كلاهما كان سعيد ويضحك ثم غادرا سويا بالدراجة عبر الجدران .

منذ تلك الليلة لم تراودني الكثير من تلك الأحلام . أحلامي كانت بمثابة هدية حقيقية من السماء والتي ساعدتني في التعافي من الألم الذي لحق بي نتيجة فقدهم . وبعد ذلك تزوجت مرة أخرى وانجبت ابنة جميلة أخرى سميتها سكاي . كان هناك أوجه شبه ملحوظ بينها وبين سكاي بعد تلك السنوات العديدة التي مضت . لطالما كنت أعرف أني سأرى سكاي مجددا. وعرفت أن الحياة ستستمر، وأن الشفاء الحقيقي يأتي من خلال معرفة أن من نحبهم يعيشون حتى ولو في أبعاد أخرى من هذه الحياة .

باتريشيا اروين

أوجد الشمس و أنزل المطر

أوجد الشمس و أنزل المطر

على حدٍ سواء يستوجب وجود الزهر

والأفراح والدموع على حدٍ سواء

تجود للروح بما يناسبها من عطاء

وعندما تغمرني او الشمس او السحاب

تكون دعوة ابي وليست دعوتي

اوه ، لن أكون في هذه الحياة التعيسة

يكفي أنها جعلتني حزينة

وعندما يحين حتفي

سأستمر بالغناء لآخر أنفاسي

وعندما تغمرني او الشمس او السحاب

تكون دعوة ابي وليست دعوتي

سارا فلور آدمز

روح طفل

كانت ليلة جمعة في اذار/ مارس ، حيث نقف انا وابني المراهق رايان على شرفتنا الامامية ، وهو يرتدي زيه المعتاد في سن المراهقة – جينز فضفاض ، وتي شيرت ضخم ، وقبعة بيسبول . كنت أحاول إقناعه انه يحتاج مِعطف ، لكن درجات الحرارة الدافئة غير الموسمية جعلته يلحُ خلاف ذلك . فقد كان ذاهب للقاء الأصدقاء في مقهى تيم هورتوز المحلي ، ومُصِر على انه ليس بحاجة لمعطف وانا مُصِرة على انه يحتاجه .

كنت دائما اكره الاعتقاد بانه قد يصاب بالبرد ، والآن وبما انه اصبح في سن المراهقة اصبح الامر تحديا اكبر في أن اقنعه أن يلبس بعقلانية . واخيراً انصاع لأمري وارتدى سترة (وند ريفر) البحرية . ثم قبلته على خده ، الطريقة التي افعلها ملايين المرات من قبل ، ومن ثم شاهدته عبر ممر المنزل . وبادلني النظرات وهو يبتسم الطريقة التي يفعلها في كل مرة ، بقليل من الخجل والرغبة في ذلك . قلت له : عدُ للمنزل بحلول منتصف الليل وانا الوح له مودعةً . فقد تكون تلك آخر مرة اراهُ فيها وأُقبله مرة أخرى .

استيقظت بحلول منتصف الليل عندما سمعت طرقاً ، وهرعت الى الطابق السفلي ، وكنت قد اكتشفت أن رايان قد نسي مفاتيحه . وقبل أن يراودني الغموض كان هناك مظهر رجلي شرطة . فأصبحت بطني مضمومة . ثم اخذت نفساً عميقا وفتحتُ الباب .

سألني احدهم : هل لديك ابن اسمه رايان ؟ فسمحت لهم بالدخول ، ثم جلسنا . بدوا منزعجين وتبادلوا نظرات القلق ، ثم بدأ احدهم بالحديث : " تجمعت مجموعة كبيرة من المراهقين لحفلة كبيرة في حديقة كرة القدم المحلية . وكان هناك الكثير من الكحول . وفي حوالي الحادية عشر مساءاً تجول فتى على طول محطة السكة حديد وسقط في مسار قطار شحن متجه شرقاً ... " شعرت بالغثيان ، فقد عرفت ما تؤول له القصة . فلقد كنت أغطي ضربات الشرطة كمراسلة ، ولكن في عالمي هذه المآسي تحدث فقط للآخرين .

سجل الطابط قائمة بالأشياء الموجودة في مكان الحدث: إسورة ساعة (مارون) ، جينز ، قبعة بيسبول . قلت : " أجل ، لكن يمكن أن يكون أي شخص آخر" ، سأل الضابط : " هل كان لديه مقوم الأسنان ؟ " ، " هل لديه بخاخ الربو في جيبه ؟ ، ثم اصابني البرد ، قفزت وقلت من الأفضل أن أتصل بأبي .

يعيش والدي على بعد مبنى واحد ، لذا وصل بعد دقائق ، ما زلتُ اتذكر كيف أنه اوشك على الانهيار عندما أخبره الضابط بأن لديه سبب للاعتقاد بأن رايان قد قُتل . فقد استمر بالصراخ : لا لا لا . كنت غاضبة منه لأنه صدقهم بسهولة . ثم ركضت نحو الطابق العلوي لإيجاد الأشعة السينية لأسنان رايان وبصماته الموجودة في كتبه عندما كان ضغيراً . وأعطيتهم الى الضابط ثم توجهوا الى المستشفى . عرفت أنهم ما أن يفحصوها سيدركوا أنهم ارتكبوا خطئاً فظيعاً . وبعد ذلك غادر الضابط . ثم اتصل والدي بأمي وأخبرها بالخبر . جلسنا في غرفة الجلوس في حالة من الشلل وصمتٍ تام . كان لدي إحساس أن الضباط كانوا على حق . لقد مات إبني وسوف لن اراه مجدداً ، لكن لم استطع تقَبُل ذلك . ودخلتُ في حالة صدمة استمرت معي لبضعة أيام .

خلال تلك الأيام ثمة الكثير لفعله - كترتيبات الجنازة وكتابة النعي واختيار مكان الدفن ، وانا في حالة من الحيرة التامة ، و أردت أن افعل كل شيء كما يجب من اجل ابني ، وفي نفس الوقت ما زلت لا اصدق انه قد رحل . أتذكر المشي عبر مجموعة من التوابيت وانا افكر كيف اختار تابوت لابني الوحيد ؟

تخطيتُ تلك الأيام الأولى بصعوبة ، بالاعتماد على كل استراتيجية للنجاة تعلمتها في حياتي . وانا في حالة صدمة ، وما زلت على امل انه ثمة خطا قد وقع . فكيف لابني الذي هو محور حياتي طوال تسعة عشر عاماً أن يرحل فجأةً ؟ ، لا يمكن تخيل ذلك . حياته كانت جزء لا يتجزأ من حياتي . فقد ربيته لوحدي منذ أن كان بعمر ستة أشهر ، وانفصلنا انا ووالده ولا توجد حقوق زيارة . لقد شاهده ينمو منذ أن كان طفل مبتسر بوزن ثلاث أرطال ونص الى أن اصبح شاباً وسيماً بطول ستة أقدام وثلاث بوصات وبحجم اثني عشر قدماً .

لأكثر من ثمانية عشر عاماً ونحن ملتفين حول بعض في حياتنا ، في علاقة تقتصر على والد واحد. مررنا بليالي أصيب فيها بالمغص ، وزيارات جناح الطواري لنوبات القلب التي أُصيب بيها ، ومقابلات المعلمين ، ورحلة الى طوكيو حيث استمتع بزيارة اليابان خلال جولات مترو الانفاق ، ومباريات المصارعة المشهورة المفضلة لدينا . وكنا دائماً نتصارع ونترك المنزل يبدو وكأنه منطقة إعصار .

العيش مع رايان والمزاح معه يشبه العيش مع (كاتو) من أفلام (بيتر سيلرز) التي قام فيها بدور المفتش كلوزو ، وعندما يتوقف عن تلك التصرفات كان يندفع نحوي من جميع انحاء الغرفة . و ينتهى بينا المطاف الى احدى مباريات المصارعة التي تجعلنا تبكي حتى تضحك .

لدى رايان موهبة واضحة لجعل الناس تضحك ، والأصدقاء كانوا مهمين بالنسبة اليه ويقدرهم اكثر من أي شيء آخر . لقد خصص بعض الوقت لكي يختلط بالناس ، وقد اخبرني أصدقائه أنه كان

يعرف قول الشيء المناسب عندما يصاب احدنا بالاكتئاب ، ونتيجة لذلك كان لديه مجموعة كبيرة من الأصدقاء . وبالنسبة للكثير من هؤلاء الأصدقاء يعتبر منزلنا بمثابة منزلهم الثاني ، وغالبا ما يضج بأصوات المراهقين ، والعاب الفيديو ، وموسيقاهم . يقوموا بزيارتنا بعد المدرسة وفي نهاية الأسبوع ، ويفرقون ثلاجتي من قطع الدجاج وصلصة الخوخ . وينوموا على الاريكة وعلى أرضية غرفة العائلة ويستيقظوا متأخرين في اليوم التالي ليلعبوا المزيد من العاب الفيديو . تمنيتُ في بعض الأحيان أن يجدوا مكان آخر ، لكن في نفس الوقت أحببتُ شعورهم بالراحة في منزلنا . ففي النهاية كنتُ اعرف دائماً مكان رايان .

لقد كان الربيع ورايان يعد نفسه لفصل جديد في حياته ، فهو في طريقه للجامعة لدراسة الصحافة الاذاعية في أيلول / سبتمبر . والآن رحل بشكل مفاجئ . فقدتُ ابني في ثانية ، وفقدتُ الحق في أن اسمي نفسي أماً . ثم اختفت ضحكات المراهقين في المنزل ، شأنها شأن أصوات العاب الفيديو . في الأسابيع القلية الأولى لم يبدأ الامر حقيقياً ، ولكن بمرور الأيام بدأت الآثار تتجلي ، وبدأت رحلتي مع الاحزان ، وزاد عجزي أكثر وأكثر لدرجة أنه لا يمكنني الاكل او النوم او التركيز على أي شيء لأكثر من بضعة ثوان . لقد كنت مرهقةً وكنت على وشك الانهيار . وما زاد الأمور سوءاً أني بدأتُ بالتدخين بعد أن وجدتُ علبة سجائر قديمة في غرفة رايان . لم ادخن منذ أن كنتُ في الثانوية ، لكن في غضون أسبوع أصبحتُ ادخن علبة في اليوم .

اصبح أصدقائي وعائلتي هم حبُل نجاتي . فقد احضروا لي اطباق (الكسرولة) ، والحساء المنزلي ، الشموع المعطرة ، وسلطات صحية ، ثم اخذوني الى المقبرة وبقوا معي طوال الليل . واشخاص لم اقابلهم في حياتي ، لكن يعرفوني من عملي في جريدة (هاملتون اسبكتر) تواصلوا معي بالبطاقات والرسائل . وكل تصرف لطيف ساعدني في تجاوز دقيقة أخرى .

زيارة أصدقاء رايان لعشرات المرات كانت اكثر وسائل المساعدة قيمةً . حيث اجلس معهم ونستذكر الأشياء المضحكة التي قام بها رايان . المراهقون كانوا أكثر صدقاً في أحزانهم من الكبار . فهم يبكون ويضحكون ويعانق بعضهم البعض عندما يريدون شخصاً ليقضوا الوقت معه . لقد احبوا أبني كثيراً ، والمصارحة بمشاعرهم تذكير يثلج الصدر تظهر كم كان مميزاً . أن مجموعة أصدقائه تتألف من 400 شخص الذين جاءوا الى الدفن . فهم من المدارس الثانوية من جميع أنحاء برلنغتون ومن جميع الفئات : فتيةً وفتيات ، صغاراً وكباراً . هكذا كان رايان . ما من حدود ولا قوانين ، طالما يعرفون كيف يضحكون .

لقد كنتُ محظوظة في أن رؤسائي في (سبيكتيتور) لم يضغطوا علي بالعودة الى العمل ، في الحقيقة ، على العكس تماماً فقد اصروا علي لأخذ مدة كافية لأتعافى ، ودفعوا لي ثمن مدرب اليوغا للمجيء الى بيتي ليعلمني تمارين الحد من التوتر ، وحتى تكفلوا بتغطية تكلفة عشاء صيني في أول يوم عيد أم بالنسبة لي .

اعتمدتُ على أصدقائي لأتجاوز كل يوم ، ولاسيما وأن الألم ازداد سوءاً ، لكن بينما الكثيرون أحاطوني بالرعاية ، هناك آخرون زادوا من إحساسي بالألم ، فعندما يزوروني يقولون أشياء جارحة وقاسية ، ويكثروا من الحديث عن مشاكلهم الخاصة . وآخرون وبعضهم ممن اعتبرهم اعز أصدقائي اختفوا دون اثر . و حاولتُ أن أفهم سبب غيابهم . عرفتُ أنني لم اكن شخصاً يسهل العيش معه ، لكنني كنتُ عاجزة تماماً مع الاحزان لكي اجعل أي شخص يتعلم الطريقة التي يعيش بيها معي . وتعلمتُ لاحقاً أنه أمر مألوف بين الآباء المفجوعين .

أخبرني احد الآباء المفجوعين أن : " فقدان طفلك هو اختبار حقيقي لمدى الصداقة "

هؤلاء الناس الذين ساندوني علموني المعنى الحقيقي للصداقة ، لكن حتى اعز أصدقائي يتوجب عليهم احياناً الذهاب الى منزلهم . وعندما يذهبوا يَعِمُ البيتُ صمتٌ مروع . اختفت كل تلك الأمور المُسَلّم بها - صوته على الهاتف وضحكاته وصوت جرجرة ارجله للجينز الفضفاض عندما يمشي في آخر الرواق ورائحة مزيل عرق " اولد سبايس " الخاصة به وصوت العاب الفيديو .

في بعض الأحيان كنت اشعر وكأني احترق ، واحياناً اشعر بالزعر وفقدان السيطرة . واكافح لدقيقة ودقيقة أخرى لا استطيع التنفس . كنت اتنفس بصعوبة واركض من غرفة لأخرى ، عاجزة عن التقاط انفاسي . تعلمتُ أن الاحزان بدنية للغاية . لقد كان الألم موجعاً جداً ، وشعرتُ كما لو أنني قد افقتُ من تخدير في منتصف عملية جراحية ، ولايزال هناك جرحٌ مفتوح وينزف . ولم استطع تحمل الأصوات العالية حتى صوت مساحات الزجاج . مشاهدة التلفاز كانت مستحيلة بسبب صور العنف المستمرة . وكل اغنية على الراديو تذكرني ب(رايان) . ويبدو لي كل مرة اذهب فيها الى متجر أني اسمع (ليان رايمز) تغني " كيف أعيش من دونك " ، واصبح من الصعب أن أقوم بمحادثة ، لقد نسيتُ كلماتٍ بسيطة ، واتلعثم كالذي أصيب بجلطة في المخ ثم توقف عن الكلام .

قبل الحادث كنتٌ أُوفق بين مهنتي الشاقة وكوني العائل الوحيد والاعتناء بشؤون البيت . والآن صنع كوباً من الشاي اصبح يمثل جهداً . كنت فخورة جداً بذاكرتي الفوتوغرافية التي خدمتني جداً كمراسلة . وهناك أوقات لم أتذكر رقم هاتفي الخاص . ومرات عديدة شعرتُ فيها بالعجز وأني مستعدة للاستسلام ، لكن جزء مني ، الجزء المقاتل كان مصمم لأن يتجاوز هذا الامر . لقد ارهقت أصدقائي

وعرفتُ أني بحاجة لطلب المساعدة . ثم بدأتُ بقراءة كتب الفجيعة ، لكن وجدتُ أنها طبية الى حداً بعيد ، وبدأتُ بالبحث عن مستشار المنكوبين ، وقد عرفتُ من خلال بحثي كمراسلة أن العمل الاستشاري أمرٌ مثير للجدل ، لأن أي شخص يمكنه وضع لافته ويدعي أنه مستشار ، لذا على الشاري أن يحزر لما يشتريه .

اغلب المستشارين الذين قابلتهم كانوا من النوع الطيب واللطيف ، والذين يقومون بالمواساة ، لكن ليس لديهم سوى معرفة ضئيلة عن عملية الحزن ، والاهم من ذلك ، كيف تتم مساعدتي على الشفاء والمضي قدماً . ثم التقيتُ ب(لوري وتوني انتدورمي) ، قُتِل ابنهم (ذاكري) طعناً من قِبل أحد الجيران و بعمر السنتان والنصف ، وكان تاريخ وفاته 27 / مارس 1997 ، قبل عام بالضبط من وفاة رايان . وبالرغم من ذلك تمكنوا من تجاوز فقدان ابنهم الوحيد ، بل تجاوزوا ايضاً القضايا الشهيرة المعروضة على المحاكم والتحقيقات اللاحقة . أرسلت لي لورى وعرضت علي دعمها ، فقبلتُ بكل سرور . لقد ساعدتني هي وتوني على فهم أن الزمن يشفي الجروح ، واكدوا لي أنه في يوما ما سأشعر بروحي مرة أخرى . فشعرتُ بالأمل مرة أخرى ، ليس فقط من كلماتهم ، لكن في رؤية الأشخاص الذين اعادوا بناء حياتهم من جديد ، ووجدوا أفراحاً جديدة . وبقينا على اتصال ، نتبادل الزيارة والاتصال الهاتفي .

بعد عام ونص من وفاة ابني واجهتُ نقطة تحول حادة ، استيقظتُ ذات صباح وشعرت بإضاءة حادة جداً ، كأنها تخرج من أحد الأنفاق ، واعتقدتُ أنني ببساطة قد وصلتُ لنهاية الاحزان . وانغمست في في هذه الإضاءة ، وتحدث عنها ، وتصرفت بها ، واظهرتُ شعوري بيها . فقد آن الأوان لكي أعود لحياتي . بالرغم من أنني ما زلتُ اجتاز التقلبات التي أمُر بيها ، فأنني كنتُ امضي قدماً . ثم عُدتُ ثانية الى العمل ، ووضعتُ برنامج لياقة روتيني ، وأخيراً أقلعتُ عن التدخين . والأهم أني مضيتُ قُدماً في خُططي لكي أصبح أماً مرة أخرى .

وبعد أشهر من فُقدان ابني فكرتُ في تبني طفل ، لقد تزوقتُ متعة الأمومة ، وعرفتُ أن لا شيء أفضل من ذلك . فقدتُ تلك الأشياء التي تجعل الأمومة سحرية ــ الاستيقاظ على ضحكات ابني ، وتعليمة كيف يركب الدراجة ، ورؤية وجهه في صباح عيد الميلاد . و افتقدتُ ان أكون جزءاً من شيء اكبر من عالمي الصغير .

منذ اللحظة التي دخل فيها رايان حياتي ، وانا اشعر اني جزء من مجتمع عالمي ، ذلك المجتمع الذي كنا متصلين فيه بواسطة هدف أسمى ، وهو أن تكوني والدة . لقد أشار احدهم الى فكرة تبني من الصين ، ونصحني ان انظر في الأمر ، لأسباب منها ان الصين تسمح للأشخاص العازبين بالتبني وايضاً بسبب ان الأطفال في الصين اصِحاء الى حدٍ ما ، وكذلك لسلاسة عملية التبني . واجتمعتُ بالفعل مع

أخصائي اجتماعي ، وبدأتُ برفع الأوراق لتبني طفلة صينية صغيرة . كما ووقعتُ مع منظمة (اوبن آرم للتبني على الصعيد الدولي) على التبني ، وذلك لتيسير اعتماد التبني ، ولتلقي الموافقة من وزارة الخدمات المجتمعية في (أونتاريو) ، وخدمات الأسرة والطفل .

والآن حان الوقت لأجراء أهم قفزة – وهي ان اطلب منهم ان يرسلوا طلبي الى الصين . ثم ترددتُ ، فلم اكن أعرف اذا كنتُ أريد أن أكون والدة مرة أخرى . وتساءلتُ عما اذا كان قلبي سيشفى بما فيه الكفاية لأعطي حبي بالكامل لطفلٍ آخر . هناك صديق مقرب مني كان قد تبنى ثلاثة أطفال وهو الذي ساندني و قدم لي افضل نصيحة .

قال : " عليكِ فقط أن تواصلي المضي قدماً " ، " وإذا شعرتِ بالأمر مريب ، فيمكنكِ دائماً أن تغيري رأيك . "

لقد كانت نصيحة قيمة ، ثم واصلتُ المضي قدماً . وفي الثالث عشر من يونيو عام 2000 ، وبعد يوم واحد من عيد ميلاد ابني تلقيتُ مكالمة هاتفية من مديرة منظمة (أوبن آرم) ـ ديبورا ماو – قائلة : ان لديها خمسة صور وتقارير طبية لطفلة بعمر تسعة أشهر ـ أسمها لينغ زو . قالت ديبورا : انها جميلة جداً .

اتجهت الى تورينتو وانا في حالة من الشغف . ، فتحت ديبورا ملف لتكشف عن خمسة صور للطفلة الصغيرة ، والتي من المفترض أن تكون ابنتي . وانا اتوق الى ذلك . لقد كان لديها وجه ملائكي مثل شكل القمر ، وشفاه مثل ثمرة التوت الوردية ، واطراف شعر ناعمة وداكنة اللون . وعيناها تحملُ الكثير من الذكاء ، وفمها يحمل الكثير الوعود . كنت اتشوقُ لان احملها ، ولكن في نفس الوقت كنتُ مذعورة جدا بشأن ما اذا كان بوسعي ان أمنح هذه الطفلة الجميلة الحياة التي تستحقها . ولا تزال هناك بعضُ الأوقات التي كنتُ اشعر فيها بأني مشلولة بالحزن . فقررتُ إتباع نصيحة صديقتي والمضي قدماً .

وبعد مرور شهرين ، استقلت طائرة مع صديقة وخمسة أزواج ، الذين عملوا ايضاً خلال منظمة (اوبن آرم) ، وقطعنا رحلة طويلة الى الجانب الآخر من العالم . وبعد يومين طويلين من الجلوس في الطائرات وصلنا الى فندق نوفوتيل في مدينة خفي في مقاطعة آنهوي . وذلك في منصف الليل ، ولم يكن في الوقت مُتسع لأخذ الراحة ، وفي التاسعة من صباح اليوم التالي اجتمعنا في قاعة مؤتمرات الفندق . وبعد ذلك بدقائق دخل طابور من المربيات الصينيات الي القاعة ، تحمل كل واحدة منهم طفلة بعمر تسعة أشهر يرتدون افرولات زرقاء متشابهة ، ثم بحثتُ في وجوه الطفلات الصغيرات لأرى إن كنتٌ أستطيع إجاد طفلتي .

وبعد بضعة دقائق صاحت إحداهم : " لينغ زوو " فهرعتُ للأمام ، فوضعتها مربيتها بين زِرَاعَيّ . كان شعرها مسحوب بإحكام بمشابك شعر صفراء ، ولكنها لا تشبه ما رأيناه في صورها . فهي تبدو صغيرة وقوية وليست مرتاحة تماماً مع هذا الشخص الجديد . ثم لاطفتُ وجهها واخبرتها أني سأكون أمها الى الابد ، وانها ستأتي معي للعيش في بلد تدعى كندا . وبعد ساعة نامت بين زراعي ، وبدأتُ أقع في حبها . وفي اليوم التالي كان واضحاً انها قررت نجاح علاقتنا بتجاوبها معي ، فقد تعلقت بي ، الشيْ الذي جعلني أثق وبدون شكّ انه مقدر لنا ان نكون معاً . وبعد بضعة أيام من لقائنا نظرت الي وقالت : " ماما ". وهي الكلمة التي ختمت على ارتباطنا .

لقد سميتها إيما ، والتي حرفياً تعني معالج عالمي ، وابقيتُ على اسمها الصيني لينغ كاسمها الأوسط لتقدير أصولها . لينغ زوو يقصدُ بيها اللؤلؤة المشعة ، وهي بكل تأكيد كذلك . وهناك هالة تحيط بطفلتي وتضيء الغرفة مثل مائة يراعة . لم التقي بالمسؤول الصيني الذي جمعنا معاً ، لكن من الواضح انه رأى شيئاً ما في أعيننا وعرف اننا خُلقنا لبعضنا . في بعض الأحيان تبدو لديها من الحكمة ما يفوق عمرها ، ربما لأن رحلتها الى هنا طويلة كما كانت رحلتي . من المحتمل بأني لن أرى أمها الصينية التي أجبرت على التخلي عنها بسبب سياسة الطفل الواحد التي تنتهجها الحكومة . لكن افكر بيها في اغلب الأحيان . ربما لأني اعرف مدى الألم الذي تعانيه عندما تفقد طفلاً . أتمنى أن تصل صرخاتي اليها لأخبرها بأن طفلتها الصغيرة جميلة وسليمة وبصحة جيدة ، والاهم من ذلك كله انها محبوبة . لا اعلم ما اذا كنتُ اساعدها في تضميد جراحها لعدم وجودها بين ذراعيها .

يعتقد بعض الناس ان فقدان ابني هو جزء من مشيئة إلهية قادتني الى الصين لتبني فتاتي الصغيرة . وان عشوائية مثل هذه المأساة مرعبة جداً . يعتقدون بأنه لابد من وجود سبب وراء ذلك . والحقيقة المحزنة هي انه ليس هناك سبب لفقدان طفل . أخذ رايان من هذا العالم باكراً جداً ، وبرحيله لم تكتمل العديد من الأشياء العظيمة . هو لن يلتقي ابداً بأخته الصغرى ، لكن له دور في ان جعلها تصبح ابنتي . لقد علمني الكثير عن فرحة الامومة . والآن تواصل ابنتي الدروس المستسقاة منه ، لقد اخبرتها عن اخيها الكبير ، وعن ابتسامته الجميلة ، وعيونه الزرقاء الشاحبة ، وروح الدعابة التي لديه . وسأخبرها عندما تكبر عن مقدار حبه للعبة الأفعوانية وقطع الدجاج والعاب الفيديو ، وسأخبرها عن مدى حبه لأصدقائه ، ومدى حبهم له . وسأبقي على روحه حيّة حتى يتمكن من تعليم شقيقته أساليب الحياة وهذا هو سبب وجود الاخوة الكبار .

دينيس دافي

دُعابة الحمّام

أفضل طريقة لإجاد نفسك هي أن تـهبها

في سبيل خدمة الآخرين.

- غاندي

علمني والدي أن لا أخاف من خوض أي تجربة جديدة . وإذا فعلت ذلك وفشلت فهو موجود ليساعدني على تخطيها . وعلمني أن اقف في وجه السلطة بكل شجاعة وذكاء وحنكة ودراية . وأن ابقي على حسي للدعابة ، وأن أفعل كل شيء لأكون عطوفةً مع الفقراء .

وفي إحدى المرات ، وبينما نحن في عطلة رأى ابي رجلاً عجوز على جانب الطريق وكان يبدو فقيراً ، حيث يرتدي ثياباً بالية ، وبمظهر بائس . أوقف ابي السيارة وقال : " عذراً يا صديقي ، فليس هناك مجال لنُقِلك معنا . " ، لكن أبي فتح صندوق السيارة وأخذ زوج من سراويله من داخل حقيبته وأعطاهم الى الرجل .

من دروس الحياة التي تعلمتها من ابي هي أن الدعابة يجب أن تضفي على كل متقلبات الحياة . وحتى عندما كان أبي في ساعاته الأخيرة في المستشفى وبوجود العائلة والأصدقاء متجمعون حوله كان لا يزال يتمتع بروح الدعابة . حين ارادت اختي دونا ان تضع له رقائق ثلج في فمه ليروي ظمأه ، ثم فاجئنا ابي حين قال : " متأكدة من أنك سوف تعطيني سيجارة ؟ " . ولاحقاً قمنا بخياطة علبة سيجار في جيب سرواله قبل مجيء متعهد الدفن ليأخذه .

في يومه الأخير لم يكن باستطاعت والدي التكلم . لكنني كنت قادرة على التواصل معه من خلال حاجبيه ؛ فقد وضعنا نظام لطرح الأسئلة ، حيث يعطيني إشارة بتحريك حاجبيه أعلى وأسفل ، فمرة للإشارة (بنعم) ، ومرتين للإشارة (بلا) ، وثلاث أو اربع مرات لو كان يبين لي أنه يضحك .

لقد كان أمرا مثير للدهشة ؛ فقد أكد لي ثلاث مرات في ذلك اليوم أنه مستعد للرحيل . ثم رأى ضوء ابيض فشعر بالسكينة . وفي الساعات الأخيرة من حياته قلت له : " ابي ، عندما أعطينا إشارة عندما تصل للمكان الذي انت ذاهب اليه ، أتفقنا ؟ "

كانت أمي تجلس في الجانب الأخر من فراشه ، حيث قالت : " حسناً إذ ، مفاجأة ، هيذر في الحمّام . أطفأوا الإضاءة واعدوها مرة أخرى بينما هي في الحمّام . " ، لاحظت تعبير أبي عن الضحك مع هذه الحواجب فقلت : " لا يا أبي ، لا مزاح وانا في الحمام ، هذا ليس مضحكة . " ثم أظهر لنا حاجبيه ليبين لنا ضحكاته .

وفي وقت لاحق ذلك المساء ، وحوالي الساعة الحادية عشرة إلا عشر دقائق ، وبوجود العائلة والأصدقاء بجانبه ، رحل بسلام . تصاعد مستوى الصوت بينما نحن نضحك ونمزح ونخوض في الذكريات . ولكن عندما رحل ابي شعرنا جميعاً بالبهجة ونحن على دراية بأنه في سلام أخيراً . لقد غادر والابتسامة الجميلة تشرق على محياه . كنا واثقين من أن الضحك والدردشة جعلته يشعر بالراحة المنزلية .

في الصباح التالي ، وحولي الساعة السابعة إلا ربع سمعت أمي تغادر الحمام العلوي بعد أن قامت بالاستحمام . فدخلت الحمام بعدها ، وعندما أنهيت حمامي ، سحبت الستار لأخذ المنشفة من الشفنيرة . وفجأة بدأت تتطاير أربع بلاطات من مختلف جدران مؤخرة حوض الحمام . وتحطمت واحدة على حافة الحوض ، كما لو أن شخصاً ما لديه إزميل ونزعهم واحدة تلو الاخر وبطريقة منتظمة .

عرفت في تلك اللحظة أنه والدي ، لكن لم أخف لانه تملكني الشهور بالأمان والهدوء والدفء ، لقد صرخت وضحكت وبكيت في آن واحد .

لم أستطع أن انتشف من الماء ومن أن أرتدي ثيابي بالسرعة الكافية . ثم أخذت امي الى الحمّام وجعلتها ترى البلاط المفقود وأنا اصرخ : " لقد كان هنا ، أنه والدي جاء الى هنا وهو على ما يرام ، هو حقاً على ما يرام ، وكانت تلك هي الإشارة ! " ، ثم تعانقنا وضحكنا وتشاركنا تلك اللحظة مع أخي برنت عندما اقتحمنا غرفته من أجل التذكير . ثم أدركنا أن ابي لم يُركب ذلك البلاط بنفسة قبل عشرين عام ، لكنه كان قد قال انه لم يحبهم قط !

في وقت لاحق من ذلك الصباح كنت أسير في المطبخ ، ثم مررت بصهري توم الذي كان يقف بجانب برنت الذي كان يجلس على الطاولة . حيث أن ابي كان هناك وليس بعيدا من الباب وبجانب كرسيه المفضل . لقد كان هناك للحظة . لقد كنت عاجزة عن التعبير ، ثم قلتُ :" هل رأيتم ذلك يا رفاق؟ لقد كان ابي هنا ! "

نظروا الي بنوع من الغرابة وقالوا : " لا . "

قلت : " جي ، لماذا والدي اختارني أنا ؟ "

نظرت دونا للأعلى وبابتسامة عريضة قالت : " لأنكِ تثرثرين معه في المستشفى ولم تصمتي ابدا ! "

يمكنني تقريباً أن اسمع ابي يضحك في الأفق وهو يؤيد ذلك تماماً .

_ هيذر تومسون

هدايا من شقيقة تحتضر

أعتقد أن الخيال أقوى من المعرفة

والأسطورة أكثر قوة من التاريخ

وتلك الأحلام أقوى من الحقائق

وان الأمل ينتصر دائما على الخبرة

وأن الضحك هو العلاج الوحيد للحزن

وأؤمن بأن الحب أقوى من الموت

– روبرت فولغام

عندما كنا صغاراً انا وأختي جوسي كنا مقربون جداً . حيث أنا الأكبر بسنتين ، والقائدة ، وكنت أنا الجريئة ، والتي لا تعرف الخوف .

اعتادت والداي على قول : " انتي الابنة الكبرى لذا يجب أن تعتني بأختك الصغرى . "

اعتادت جوسي على أن تتبعني طوال الوقت بينما أقوم بكل الأمور التي تتعلق بكلانا . انها الطريقة التي كانت تسير عليها الأمور في تلك الأيام . وبدأ اننا نتقبل قوانين بعضنا البعض . هكذا كانت علاقتنا ، واستمرت بنفس الطريقة دون تغيير حتى بلغت سن الأربعة والعشرين . عندئذ تزوجت رجلاً يكبرها بثماني سنوات ، وانتقلت الى مدينة أخرى . ومنذ ذلك الحين تغيرت علاقتنا بشكل كبير ، وأخذت حياتنا اتجاهات متباينة وكل منا لاتجاه مختلف تماماً .

بعد ذلك وعند سن الأربعين أصيبت جوسي بمرض سرطان الرئة ، وتواصلنا مجدداً لفترة استمرت ثمانية عشر شهراً .

وخلال تلك المحنة وللمرة الأولى منذ عدة سنوات قمنا بالتحدث مع بعضنا البعض باننا لطالما كنا نهتم ببعضنا ويحب كل منا الآخر . قالت لي جوسي : " لا أريد أن أموت . " ، فأخبرتها بأنني لا أريدها أن تموت ، ووعدتها برعاية طفليها في حالة انها لم تتعافى . وبدأت تجمعنا أواصر المحبة مرة أخرى كأخوات .

وفي ذات مساء وأثناء جلسة استشفاء متخصصة بيّنت جوسي أنها كانت تحسدني وتستاء مني عندما كنا صغاراً ، واعترفت بأنها لطالما أرادت أن تكون مثلي . هذا السر كانت تحتفظ به في قلبها وعقلها كل تلك السنين . لقد رأيت انه كم من المؤلم أن تفتح قلبها لأحد وتحادثه وتشاركه احاسيسها العميقة . حقيقة أنني لم أكن أعرف أختي جيداً حتى نهاية حياتها . حينها فقط أبصرت قوتها وصلابتها وجمالها .

وأخيراً تواصلنا على المستوى الروحي . فالان لم تعد الكلمات ضرورية . لقد عبرت عن نفسها بهدوء ، فقط بالتواجد هنا . وفي نهاية حياتي منحتني أختي الصغيرة أثنين من أعظم الهدايا التي سأحظى بها ، وهما : معرفة الحياة الأبدية ومعرفة الحب الإلهي .

لطالما كان الموت معتقد أجهله . وليس هناك ما يدعوني لأفكر به من قبل ؛ لأنه ليس هناك أحد عزيز على قد مات من قبل . وكنت دائماً أشعر أني أفهم حقيقة الموت ، فكرياً وروحياً على حد سواء . لكن بسبب مرض جوسي ؛ واجهت واحدة من أعظم أسرار الحياة ، فقد بينت لي مقاومتي ، وجهلي ، وخوفي المستحكم من الموت والألم الذي يصاحبه .

في الحقيقة ان موت اختي قد اقترب اكثر فأكثر . وهو امر لا مفر منه ، رغم انه في بعض الأحيان اردت فقط أن أغمض عيني وأغرق في غياهب النسيان . فالألم الذي شعرتُ به كان الماً لا يطاق ، وذلك في كل مرة أنظر فيها الى ما يبدو لي أنه الشكل العظمي لأختي العزيزة .

في نهاية حياتها لم تزن جوسي سوى 70 باوند ، وأصيبت إحدى عينيها بالعمى . وحرصت على أن أخفف عنها من تشعر به من الآم عاطفية ونفسية ، وأن أحميها من الأذلال الذي تشعر به من النظرات الغير مرغوب فيها من الناس حينما نعيدها في كل مرة من المستشفى الى المنزل . وكلما التقت عيناي بعينيها ، كنت أعرف أنها تريد أن تسأل : " لماذا يحدث هذا لي ؟ " ، فلا أستطيع أن أقدم أي سبب ، ولا أجوبة ، ولا معني لذلك .

وفي كل دقيقة من كل يوم تقترب حقيقة موتها أكثر فأكثر . وبدأت أشعر بالغضب إزاء ذلك بصورة غير مباشرة ، وذلك لإجباري على خوض هذه التجربة ، وفي مرة تمنيت لو لم يتم اختياري .

وفي ذات ليلة وقبل عدة أشهر من وفاة جوسي ، تركت نفسي وبوعي تام بأن أتخيل كيف ستكون لحظة موتها . في البداية كنت مرعوبة ولاسيما بسبب تخيلي لموتها في غرفة باردة في المستشفى بدلاً من دفأ المنزل . في بادئ الأمر كان له اثر لا يقاوم ، لكن بعد ذلك تسلل الهدوء والوعي الى نفسي ، وطلبت الإرشاد الديني واي طريقة أخرى لكي أتمكن من ان أعيش تجربة موتها دون خوف . ثم بدأت بالاسترخاء والتنفس ببطء والتركيز على مصدر منظومة الطاقة التي بداخلي . وبدأت تتشكل أمامي صورنا أنا وجوسي عندما كنا صغاراً . وتخيلت كيف سيكون شعوري وماذا سأقول لها .

رأيت مشهداً لما ستكون عليه اللحظات الأخيرة من حياتها . وبعد انتهاء هذا المشهد شعرت بالارتقاء وبالأمان . وعلمت حينها أني سأكون الى جانبها عندما يحين وقت رحيلها من هذا العالم المادي .

وبعد ذلك بشهور ، وفي ظهيرة يوم أحد ، وفي أحدى غرف المستشفى كانت اختي تفارق الحياة . كنت أعلم ذلك . لقد كنت موجودة بالإضافة لأطفالها ووالدتنا ، ولاحقاً جاء كل من ابي واخي . لقد شعرت بروحها تفارق جسدها بلطف وشيئاً فشيئا . وابنتاها يسنداها من جهة وانا من الجهة الأخرى ، ونحن نداعب شعرها . وشعرت بمحبة شديدة نحوها ، وأنها شعرت بذلك أيضا . بدأ وكأن قلبي ـ وانا اشعر بهذا الشعور كأنه إحساس طبيعي في منتصف صدري ـ قد أخترق ليتجاوز نطاق قدرته الطبيعية .

بدأت روحها تغادر جسدها شيئا فشيئا وبشكل مستمر ، فهمست نحو النور بكلمات الحب ، وعبارات الدعم ، وكلمات بث الطمأنينة ، وعبارات الإرشاد . لقد احسست أني مرتبطة تماماً بجوسي وبينبوعي الروحي . وشعرت بالطمأنينة لأني عرفت ملاذها الأخير .

بدأت تكتنفني الحقيقة ، وينتابني ادراك لا يمكن أن يتخيله عقلي . فأنا في الواقع لم أكن أرى أي ضوء على وجه الخصوص ، لكن شعرت بأواصر السلام وعُرى الحب تحيطنا بقوة . والتي تنبع من داخلنا ، وتضفي الغرفة بأكملها . وبينما روحها تفارق جسدها شعرت ان جوسي بدأت تتسلل شيئا فشيئا الى العالم الآخر .

عزيزتي واختي الجميلة تسلم جسدها بسلام ، بينما روحها تقترب رويداً رويدا من الروح . وفي لحظاتها الأخيرة ليس ثمة هناك أي حواجز تعترضنا ولا فواصل . واشعر فقط بالروح ، وروحي وروحها كانتا روحاً واحدة . ونفس مصدر الطاقة ،ونفس الفحوى . وبوفاتها عشت تجربة حياة ، حياة الروح الحية ، وحياة تذبذب الحب ، وبعمق واستفاضة أكبر ، وبشكل لم أعشه من قبل في حياتي ، واخيراً انجلى لي غموض الموت .

وبوفاتها قدمت لي اختي أفضل هدية . والآن بتُ أعرف أن الموت هو جانب من جوانب استمرارية الحياة ونهاية عصر من الزمن . وأنه الاستسلام الأخير لأجسادنا ، ولكبرياء الروح ، ولكبريائنا في أن نحب . الجمال والقوة والسلام هذه هي الهبات المتضمنة قد أثرت حياتي ، وغيرتني الى ما هو أعظم .

افتقدتك اختي العزيزة ، وعندما أفكر في جسدك ، تلك الصدفة الفارغة التي تحت الأرض ، اشعر بألم في منصف صدري ،و ألم عميق جداً . ولكن اذا اغمضت عيني ، وتعمقت في داخلي وشعرت بأواصر الحب التي بيننا ؛ لأدركت انكِ بأمان وبخير ، وهذا يشعرني بالاطمئنان .

ميديا بافارلا بتشيكتشك

لا تقف على قبري وتبكي

لا تقف على قبري وتنتحب

أنا لست هنا ولست نائماً

أنا رياح هادرة هوجاء

أنا الماسة فوق الثلوج البيضاء

أنا ضوء الشمس على الحبوب الناضجة

أنا امطار الخريف الهادئة

أنا اليقظة التي ترفعك

أنا اسراب الطيور والنجوم التي تتلألأ في السماء

لا تقف على قبري وتنتحب

أنا لست هناك ، ولستُ نائماً

- ماري إليزابيت فري

أمنية رايان

من الممكن أن يدوم البكاء لليلة ،

لكن الصباح دائماً يأتي محملاً بالبهجة .

ـ ترنيمة في الباب الثلاثون الصفحة الخامسة

في 1 / أيار / مايو 1997 ، بدأ اليوم طبيعياً ، حيث كان رايان في الطابق العلوي يستعد للذهاب للمدرسة ، بينما جيمي شقيقته البالغة ستة سنوات تنتظره عند الباب الأمامي . وفجأة بدأ رايان يخبرنا عن ألبرت أينشتاين بكثير من الإثارة والحماس ، وكأنما نور انفجر من رأسه . حيث قال : " إن الطاقة = الكتلة في مربع سرعة الضوء ـ لقد استوعبت ما كان يتحدث عنه أينشتاين ـ انها النظرية النسبية ، لقد فهمتها الآن ! "

قلتُ : " مذهل " لكن اعتقد انه أمر قريب ، ليس تفكيره بشأن أينشتاين ـ فقد كان رايان ذكي جداً ـ وإنما التوقيت الذي بدأ غريباً .

بعمر عشر سنوات أحب رايان المعرفة ، وبدأ أنه يحظى بفيضٍ كبيرٍ منها أبعد ما يكون من سنين عمره . وبالنسبة إليه الإمكانيات الكونية لا حدود لها . فعندما كان في الصف الأول كان الأطفال في صفه يطلبوا منه أن يرسم صورة ثم الإجابة على السؤال : " لو كان بإمكانك أن تكون أي أحد ، فمن ستكون ؟ " ، كتب رايان لو كان بإمكاني أن أكون أي أحد ، كنت سأرغب أن أكون رجل دين . في سن السابعة ، وبينما يجلس في الكنيسة ذات يوم كتب :

شجرة الحياة يا شجرة المجد

شجرة الله للعالم يا شجرتي

بطريقة ما اعتقد أن رايان تفهم الأمر .

أثناء موقفه الغريب حول ما يتعلق بمعادلة أينشتاين ، فجأة صرخ رايان مشتكيا من صداع . فصعدت الى الطابق العلوي فوجدته مستلقي على فراشه ، فنظر الي وقال : " أمي رأسي يؤلمني بشدة ولا أعرف ماذا يحدث لي ، يجب أن تأخذيني الى المستشفى ."

وعندما وصلنا المستشفى في مدينة نيو ماركت كان فاقداً للوعي . لقد وقفنا مكتوفي الايدي بينما يناضل الأطباء لإنقاذ حياته ، ومن ثم قلوه بسيارة إسعاف الى مستشفى تورنتو للأطفال المرضى .

وبعد ذلك بساعتين سُمِح لينا أخيراً برؤيته ، فقد كان على جهاز الإنعاش . وعندما أخبرنا الطبيب أن ابننا عانى من نزيف دماغي حاد وانه كان قانونياً وسريريا ميت دماغياً ، في تلك اللحظة شعرت كما لو كان كابوساً ، ودخلنا في صدمة . وقال الطبيب : " لم يكن بالإمكان أكثر مما كان " ، وسأل عما إذا كان بالإمكان التبرع بالأعضاء . ناقشنا هذا الأمر مع رايان ونحن في حالة من الذهول وذلك في الآونة الأخيرة فقط . ثم نظرنا الى بعضنا وفي آن واحد أجبنا : " اوه نعم " رايان كان سيرغب في ذلك .

وفي نيسان / أبريل شاهد رايان والده يملأ بطاقة التبرع بالأعضاء على ظهر رخصة قيادته ، لقد أوضح له والده كل ما يتعلق بالتبرع بالأعضاء ، وكيف أنه يمكن أن يساعد في انقاذ حياة شخص آخر عندما يوافق على التبرع بأعضائه عندما يموت . وعندما تساءل رايان عما كان اذا كانت هناك حوجه لرخصة قيادة للقيام بذلك ، فأجاب والده بأن أن أي شخص يمكنه أن يتبرع بأعضائه .

التبرع بالأعضاء كان له معنى كبير بالنسبة لرايان ، ولقد قام بمفرده بحلمة الموافقة من قبل الاسرة بأكملها للتوقيع على بطاقات التبرع بالأعضاء . وكنا على يقين من أن التبرع بأعضاء رايان هو القرار السليم الذي يتعين اتخاذه .

وبعد إجراء بعض الترتيبات على فراشة ودعنا ابننا . لقد تركنا جزء من كياننا خلفنا عندما غادرنا المستشفى . وفي طريقي الى المنزل شعرتُ بضباب كثيف قادم ويحيط بي ويخنقني . لم نصدق البته ما حصل . وأجهشنا بالكباء انا وزوجي ديل ونحن بين زراعي بعض طوال تلك الليلة ، ولعدة ليالي تليها . وكأن جزءاً من كياني مات مع ابني .

استهلكني الحزن لمدة طويلة . و كنا ننتظر رايان ليدخل من الباب . ولقد حزنا لفقدان الحاضر وأيضاً لفقدان آمالنا وأحلامنا ، ومن ثم أدركت أنه لا يمكن لأحد أن يتجاوز موت طفله ، وأن الجروح تتداوى بمرور الزمن ، لكنك ستتغير للأبد . فقط ابتنا هي السبب في أن نستيقظ في الصباح وأن نمضي قدماً .

وفي صباح يوم جميل بعد أربعة أشهر من وفاة رايان ، وصلت الرسالة موجهة لي ولزوجي ، وعند قراءتها بدأنا بالبكاء . لقد كانت من طالب جامعي في العشرين من عمره يشكرنا فيها على مساعدتنا لـه فـي استعادته لنعمـة النظـر . لقـد حصـل علـى احـدى هـالات رايـان ، والآن يمكنـه الرؤيـة مجـدداً. انه من الصعب أن نصف مشاعرنا ، فقد بكينا ، وفي نفس الوقت شعرنا بشعور رائع .

وفي وقت لاحق وصلتنا رسالة أخرى من أمرأه شابة في الثلاثين من عمرها ، التي كانت قد حصلت على أحدى كليتين رايان وعلى البنكرياس ، وقد أخبرتنا انها الآن بمنأى عن مشاكل الانسولين وغسيل الكلى ، وأصبحت قادرة على العمل مرة أخرى والعودة الى الحياة الطبيعية .

وفي أوائل أيار / مايو كانت الذكرى السنوية الاولى لوفاة ابننا ، والتي أعادة الى الأذهان الذكريات المؤلمة . ومن ثم وصلتنا الرسالة الثالثة من فتى يافع يبلغ من العمر ستة عشر سنة ، وُلد مصاباً بالتليف الكيسي ، وقد تلقى رئتي رايان ، ولولا عملية زراعة الرئة المزدوجة التي خضع لها كان من الممكن أن يموت ، بالإضافة الى ذلك فقد تكمن من العودة الى المدرسة وأصبح الآن يفعل أشياء لم يقوم بها من قبل ــ مثل الركض ولعب الهوكي والتزلج مع أصدقائه . ساهمت معرفة حياة هذا الفتى في رفع روحنا المعنوية كثيرا .

ونظراً لقوانين مراعاة السرية فأن التبرع بالأعضاء أمر سري تماماً في كندا ، والمستفيدين من الأعضاء والأسر المانحة لهم يمكنهم التواصل عبر منظمة زراعة الأعضاء . وعلى الرغم من عدم معرفتنا بهوية الأشخاص الذين تلقوا أعضاء رايان ، فقد كنا نحصل على آخر مستجدات حالاتهم الصحية.

وأطلعنا على طفلة في السادسة من عمرها التي كانت قد حصلت على كلية رايان الأخرى ، وهي الآن بصحة جيدة وقد وأصبحت بمنأى من غسيل الكلى ، وأصبحت تذهب الى المدرسة طول الوقت . والتحقت بالمدرسة بدوام كامل . وعلمنا ايضاً بأن المرأة البالغة من العمر اثنين وأربعين سنة التي حصلت على كبد رايان أنها في حالة جيدة واستطاعت مجدداً قضاء بعض الوقت مع عائلتها الصغيرة .

كل هذه السعادة تأتي من اكناف أحزاننا وكثير من الفرح يأتي من مصائبنا .

بالرغم من أنه لا يوجد ما يداوي ألآمنا إلا أننا أخذنا قدراً كبيراً من المواساة والراحة من معرفة أن رايان قام بشيء معظمنا لا نقوم به ــ لقد أنقذ حياة الكثيرين .

وفي ذلك الصيف وبينما نحن في عطلة في هاليبرتون التقينا شاباً بمحض الصدفة ، والذي كان أجريت له زراعة كلى وبنكرياس في نفس المستشفى الذي تم فيه نقل بعض أعضاء رايان ، وهذا الشاب

كان يعرف المرأة الشابة التي حصلت على كلية رايان وبنكرياسه وذلك في اليوم الثاني من مايو من فتي في العاشرة منه عمره وقال انه يعتقد أن يكون ابننا . هذه المرأة كان اسمها ليسا وأنها كانت تتماثل للشفاء بشكل جيد . وخشيت من ان اسأل من أسم العائلة . وتساءلت لاحقاً عما إذا كنتُ فوّتُ فرصتي الوحيدة في مقابلة احدى متلقين أعضاء رايان .

ألهمني هذا اللقاء الذي أتى بمحض الصدفة ، فقررتُ أن أشارك تجربتنا مع الأخرين في الربيع المقبل . أنا لست كاتبة لذا كان من الصعب أن اكتب قصتنا وأرسلها الى الصحافة بشأن الأسبوع الوطني للتبرع بالأعضاء . ثم أرسلت مقالتي بالفاكس الى ثلاثة صُحف . والشيء المثير للدهشة أن الثلاثة صُحف تريد أن تنشرها ! وأعقب ذلك سلسة من المقابلات وجلسات التصوير ، لقد عشنا تجربة مثيرة لم نكن نتقد اننا سنحظى بمثلها مرة أخرى .

وعندما ظهرت اول مقالة ، كنا انا وديل مرتبكان تماما عند فتحنا للصحيفة ، فقد وجدنا قصة رايان تصدرت عنوان الصحيفة وتضمنت القصيدة التي كتبها رايان عندما كان في السابعة من عمره تماماً كما نقشناها على قبره . ولقد بكينا دموع الفرح والحزن ونحن نقرأها مراراً وتكراراً . وقد أحدث فرقاً في فترة العشر سنوات القصيرة التي قضاها في هذه الدنيا .

وبعد أيام قليلة ظهرت المقالة في الجريدتين الأخرتين ، ثم بعد أسابيع قليلة تلقينا مكالمات من أشخاص من جميع أنحاء كندا . لقد شعرنا بالدهشة والسرور ، وكنا نأمل أن تساعد هذه القصة في رفع درجة الوعي بشأن التبرع بالأعضاء ، وربما تصبح مصدر الهام للتبرع .

وعلى ما يبدو أن ليسا قرأت المقالة ايضاً ، وذلك عندما رأت قصيدة رايان وتعرفت عليها من خلال الرسالة التي ارسلناها لها وأدركت انه من تبرع لها بأعضائه . ذُكر بالمقال انه بعد أسبوعين سنكون في تورنتو من أجل تقديم وسام هبة الحياة ؛ لذلك قررت الحضور . وعندما وصلت الى هناك لم تكن متيقنة من انها قامت بتقديم هويتها ، فقد كنا جميعنا نرتدي بطاقات الأسماء ، وعندما وجد ليسا نفسها تقف بجوار زوجي ديل لم تستطع كبح دموعها . ولكم ان تتخيلوا مشهد الاحضان العاطفية والدموع التي تلت ذلك ! لقد كان شيئاً إعجازياً حقاً ! ولحظة لا تنسى ، لقد كان شعوراً رائعاً أن نراها تقف هنا وهي على قيد الحياة وهي تعلم أن ابننا قد ساعد في أن يكون ذلك ممكنا . ويبدو أن كلية رايان وبنكرياسه يتوافقان تماماً معها ، والان جزءاً منه يعيش بداخلها .

وبعد لحظات اقتربت منا أمرأه ومعها ابنتها البالغة من العمر ثمانية أعوام حيث قالت : " اعتقد ان ابنتي تلقت احدى كليتي ابنك " لقد كانت كاسيا في عمر الرابعة عندما توقفت كليتيها عن العمل وأصبحت تخضع لغسيل الكلى . وبالنسبة للتفاصيل الخاصة بتوافق عملية النقل، كنا جميعنا على يقين أن

كلية رايان هي التي منحت هذه الفتاة الجميلة حياة جديدة . وبعد أسابيع قليلة ، وعندما قمنا بزيارة قبر رايان بكينا من الفرحة عندما وجدنا رسماً جميلاً موجوداً هنا بتوقيع " كاسيا " .

وبالنظر الى قوانين السرية في كندا فأن لقاءات من هذا القبيل نادرة جداً . والمرء يعجز حقاً عن وصف تلك المشاعر القوية الناجمة عنها . عندما مات رايان اعتقدت أنني لن أشعر بالفرح مجدداً ، لكن مقابلة ليسا وكاسيا كان نوعاً من المعجزات ، وفتحت قلبي لمشاعر اعتقدت انها قد دفنت الى الأبد مع ابني .

واليوم اعرف اني سأكون دائما أم لطفلين ، ورايان سيكون دائما وابداً جزءاً من حياتنا . وبالرغم من الألم الناجم عن فقدانه لم يفارقني تماماً ، الا انني بدأت بلم فتات حياتي الماضية رغم انها الان اتخذت شكلاً مختلف . يعود بعض الفضل في تعافينا من تجربة تبرع رايان بأعضائه ، وأحمد الله كثيراً بأن منحني لقاء ليسا وكاسيا لتنفتح روحي وقلبي مجددا . ومقابلتهم اتاحت لي أن أعيش تجربة ولأول مرة في حياتي كنت اظنها رحلت للأبد .

ـ نانسي لي دونغ

لئن شفيتُ نفساً من أساها

لئن أبرأتُ نفساً من أساها

فلن أعيش عبثاً

ولئن انسيتها اوجاعها
او خففتُ من آلآمها

او ساعدتُ نفساً بعد أن ضلت خطاها

فلن أعيش عبثاً

إيميلي ديكنسون

الوداع

التضرّع الحقيقي هو ليس أن نسال الله الحب ، بل هو ان نسأله ان نتعلم أن نحب ، حب يشمل مودة البشرية جمعاء .

ـ ميري بيكر إيدي

أنه يوم الأربعاء ، وأنا أستعد للذهاب للعمل . ففي كل يوم أربعاء وعلى مدى العامين الماضيين كنت أزور مريضة التي كنت أدير لها برنامج للراحة ، وجلسات مساج ، وذلك بصفتي متخصصة في العلاج الطبيعي ، وكل يوم أربعاء كنت أتساءل اذا الأمر يستحق ذلك .

أحيل إلي هذا العمل منذ عدة سنوات من قِبل زميل في العمل الذي لم يعد بإمكانه علاج المسنات . فوافقت على القيام بذلك . في زيارتي الأولى وجدت أمراه يبدو أنها طريحة الفراش ، ومستلقية ومكومة على الفراش ، وتحدق في السقف وهي بلا حياة . وجِل قلبي لرؤية إنسان آخر تبتلعه التعاسة . ثم قدمتُ نفسي وأوضحت لها ما يتضمنه علاجي . ولما لم اتلق أي رد قررت أن أفضل ما يمكن عمله هو أن أواصل عملي بدون الشكليات المعتادة .

يبدو أنها أمرأه لا حلا لها ولا قوة وتحاول أن تصفعني على أنفي . لكن بالطبع ولكوني أقوى منها ، فقد منعتها من القيام بأي ضرر . وفي ذلك الوقت راودتني فكرة أن آخذ أغراضي وأبتعد عن هنا قدر المستطاع ، ولكن كنتُ قد قطعت التزاماً وشعرت أنه من الحكمة احترامه .

استمريت في ادائي للمساج ، وأنا اتحدث مع المرأة المسنة بهدوء ولطف . وسرعان ما بدأت تسترخي ، وأصبحت هادئة . حينها أدركت أن عملي معها قد يؤتي أُكله .

وهكذا ، وبعد مرور عامين ونص وانا أذهب للسيدة المسنة المتكومة ، والتي تدعى ماري ، والتي لم تعد تحاول أن تصفعني مجدداً ، والتي نادراً ما تبتسم ، لكنها أصبحت عاجزة عن الكلام . ولم تحقق تقدماً بدنياً يذكر وحينها كنت أسأل نفسي ما المغزى من مواصلة العلاج ؟ وفي كل مرة كنت أتساءل عن دوري في حياتها . لكني سمعت صوتاً بداخلي يحثي على المواصلة .

وفي صباح يوم أربعاء وأثناء استحمامي استعداداً للزيارة التي أقوم بها ، سمعت صوتاً ضعيفاً وهامس داخل أذني الداخلية . لقد كانت ماري ، صوتاً واضحاً كما لو كانت تقف أمامي الآن ، وسمعتها تقول : " أنا مستعدة للرحيل الآن ."

أجبتها : " مهلاً ، سأكون معك في الحال . "

وعندما وصلت الى غرفة ماري وجدتها متكومة ووحيدة في كرسيها . ثم وضعت يدي على يدها وأمسكت بيها ، وما أن نظرت اليها وقتها لم يكن لعيانها مكان في هذا العالم بعد الآن . ثم وضعت زراعي حولها وهمست لها في أذنها ، ثم قلت لها : " ماري أنا هنا لمساعدتك . ومن الأفضل لكِ أن تغادري جسدك المتعب ." وبعد ذلك بدأتُ أغني لها بالكلمات المقدسة (هوو) ، كنت اعرف أن هذه الكلمات من شأنها أن تساعد على خلق جو من الروحانية الذي سيجعل عملية انتقالها أسهل . وبعد لحظات أخَذت أنفاساً عميقة ، ثم بعد ذلك بثواني فارقت الحياة .

كنت اعرف حينها أنني أمسك فقط بهيكل فارق ، لأن ماري حره الآن .

سنتان ونصف قضيتها كلها للاستعداد لهذه اللحظات القليلة الثمينة . سنتان ونصف السنة للمشاركة في وفاة روح جميلة . ويشرفني ان يتم اختياري وأنا أحيي الحياة البسيطة لتلك المرأة المسنة المتكومة .

ـ باربرا أولبورت